

زخني علما

جان بياحيه

البنويّة

ترجمة

عارف منينه
و بشير أوبري

منشورات عويدات
بيروت، لبنان

البنويرة

جان بيساجيه

استاذ في كلية العلوم في جنيف

البنويّة

مُرجّعة

عبد الوهاب

عارف منمنمة

منشورات عويدات

بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الرابعة ١٩٨٥

مقدمة

إذا تصفحنا الكتب الجديدة عن البنيوية التي تصدر في اللغات الأجنبية (والفرنسية خاصة) ، نلاحظ أن أول ما يشير إليه المؤلفون هو كون السِّبْنة المصانة بدأت تتناقل الكلام عن البنيوية أينما كان ، وبعبارة أخرى يسودُ البنيويين ، والفلاسفة بشكل عام ، جو من الازعاج بسبب «الموضة» التي بدأت تلقاها البنيوية في الغرب ، في حين أن الوطن العربي لم يسمع حتى الآن بهذا العلم سوى في بعض الميادين الثقافية النادرة .

ولمَن لا تتوخى من خلال نشر كتاب «جان بياجييه» هذا، أن يَكُفَّ القراء العرب ويستوعبوا الطريقة البنيوية ببجملها ، رغم أن المؤلف تعرض لها في شتى الميادين التي دخلتها: من علم الرياضيات حيث يسهل شرح مفهوم البنية وتحولاتها وجُمُلتها إلى الانتروبولوجيا (أي الإناسة) حيث أثبتت البنيوية أقدامها مع «كلود ليفي شتراوس» ، سروراً بعلم الفيزياء وعلم الأحياء (البيولوجيا) وعلم اللغة وعلم النفس ؛ ولكننا نتوخى أن يستشف القارئ البنيوية في عاصمتها أولاً وفي مفهومها؛ وتريده أيضاً أن يتعرف إلى المشاكل التي تتعرض لها والتي تثيرها، من مشكلة تكوين البنية إلى مشكلة تواجدها في جميع الميادين ، على ألا يكون استيعاب البنيوية مجذاً فيها بما هي علم يمكن انطلاقاً منه تطوير الميادين العلمية والفنية التي تطرق لها إلا بتناول البنيوية في علم من العلوم تسميت إليه كانت لتناول البنيوية وكيفية دخولها على علم اللغة من خلال دراسة مؤلفات «فردينان دي سوسور» الذي يعتبر الرائد الأول للبنيوية ، وإما على علم الاجتماع من خلال مؤلفات «كلود ليفي شتراوس» أو «لوي ألتوسير» ، وإما على علم النفس

وعلم النفس التحليلي من خلال مؤلفات « ميشال فوكو » أو « جاك لا كان » ،
الخ... غير ان جان بياجيه لم يترك أحداً من هؤلاء البنيويين إلا وتناول منطقته
البنيوي عملاً مفسراً مهتماً فاقداً ، مُظهرأ عند كل منهم نقاط الضعف ونقاط
القوة ، لذلك فإن في هذا الكتاب الموجز والمُكتشف عن البنيوية ما يكفي
لتفهم أولى البنيوية بالإضافة إلى إغناء قيم لها .

لا بد أخيراً من الإشارة إلى الصعوبة التي تعترض ترجمة كتاب من هذا النوع
إذ أن « الألفاظ التقنية » الخاصة بالأسلوب البنيوي تفوق الكلمات العادية
لذلك حاولنا قدر المستطاع توضيح الأمور ، خاصة وانها ألفاظ جديدة حتى
على اللغة الفرنسية نفسها ، وذلك بتفسير لها حين يلزم الأمر ذلك .

ولا يسمنا أخيراً سوى أن نتمنى بأن ينتشر هذا المنطق التحليلي عند
الكُتّاب والمفكرين العرب وليست ترجمة هذا الكتاب سوى مساهمة منا في
السَّير على هذه الطريق .

المترجمات

بيروت في ١٩٧١/٩/٢٧

١ | المدخل وطرح المسائل

١ - تحديدات . - قيل غالباً إنه من الصعب إيجاد ميزة للبنىوية ، ذلك أنها ارتدت أشكالاً كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وان « البنيات » المعروفة اكتسبت معانٍ تزداد اختلافاً . ومع ذلك ، فمن المقارنة بين المعاني المتنوعة التي اتخذتها البنىوية في العلوم المعاصرة والنقاشات الجارية ، والتي ، للأسف ، كثر استمهاؤها عرفاً ، تبدو محاولة التأليف ممكنة ولكن بشرط واضح وذلك أن نفرق ما بين المشكلتين المرتبطتين فعلاً ، رغم استقلاليتها قانوناً ، بين الفكرة المثالية الإيجابية التي تقضي مفهوم البنية في الصراعات أو في آفاق مختلف أنواع البنيات ، والنوايا النقدية التي رافقت نشوء وتطور كل واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم .

ويجب إذاً سلفاً هذا التفريق بين المشكلتين ، أن نعارف بوجود مثال مشترك من الوضوح يصل إليه أو يحاول إيجاد جميع البنيويين ، فيما تختلف نواياهم النقدية إلى ما لا نهاية . فيرى البعض أن البنىوية ، كما في الرياضيات ، تتعارض مع تجزئة الفصول غير المتجانسة محاولين إيجاد الوحدة بواسطة تشاكلات ، والبعض الآخر يرى ، كما لأجيال متتالية من اللغويين ، أن البنىوية تجاوزت الأبحاث التطورية التي تتناول ظواهر منعزلة وأخذت بطريقة المجموعات للنظام اللغوي المترام . أما في علم النفس فقد زادت البنىوية من معاركها ضد الميول « الذرية » atomistique التي كانت تسعى لجمل المجموعات مقتصرة على روابط بين عناصر « مسبقة » . ويتضح من النقاشات الجارية هجوم

البنوية على التاريخية والنفعية وحتى في بعض الأحيان على جميع الأشكال المائدة للذات الانسانية بشكل عام .

ومن البديهي اذاً ، انه إذا حاولنا تحديد البنيوية بالمقابل مع مواقف أخرى وبالتحديد على التي أمكن لها محاربتها فلن نجد إلا مفارقات وتناقضات مرتبطة بجميع تقلبات العلوم والأفكار . وبالعكس ، إذا ركزنا على الميزات الإيجابية لفكرة البنية ، نجد على الأقل مظهرين مشتركين لجميع البنيات : من جهة مثلاً أو آمالاً من الوضوح الضمني ، ترتكز على المسكنة القائلة إن البنية تكتفي بداتها ولا تتطلب لإدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها ، ومن جهة أخرى إنجازات تقدمها رغم تنوعها ، وذلك إلى حد ما يمكن معه فعلياً إدراك بعض البنيات ، وحيث يوضح استعمالها بعضاً من ميزاتها العامة التي تبدو ضرورية .

وتبدو البنية ، بتقدير أولي ، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تفتني بلعبة التحويلات نفسها ، دون أن تعدى حدودها أو أن تستعين بعناصر خارجية . وبكلمة موجزة ، تتألف البنية من ميزات ثلاث : الجملة ، والتحويلات ، والضبط الذاتي .

وبالتقدير الثاني ، الذي قد يكون طوراً لاحقاً كما يمكن له أن يلي مباشرة اكتشاف البنية ، يجب أن يكون بإمكان هذه الأخيرة أن تفسح المجال للتعميد الاستنباطي . على أن يفهم فقط ان هذا التعميد الاستنباطي هو من صنع المنظر ، فبما للبنية استقلالاً عنه ، وانه يمكن أن يُترجم بمعادلة منطقية - رياضية أو أن يُمرّ بواسطة نموذج احصائي آلي . توجد إذا درجات مختلفة ممكنة من التعميد الاستنباطي تتوقف على قرارات المنظر في حين يجب تحديد نمط وجود البنية التي يكتشفها ، في كل حقل خاص من الأبحاث .

ويُمكننا مفهوم التحويل من أن تحدده أولاً المسألة لأننا إذا أردنا أن تشمل في فكرة البنية جميع الشكليات بمختلف معاني هذه الكلمة ، لقطت

البنوية بالفعل كل النظريات الفلسفية، التي ليست بالضبط تجريبية والتي 'ترجع' إلى أشكالٍ أو إلى جواهر، وحتى بعض منوعات التجريبية كـ 'الوضعية المنطقية' التي تستدعي اللجوء إلى أشكالٍ نحوية ودلالية لتفسير المنطق. والحالة هذه، وطبقاً للمعنى الذي حددناه، لا يحتوي المنطق نفسه بنيات كبنيات مجموعة أو تحويلات: بل بقي، وبظواهر متعددة، خاضعاً لنزعة شديدة المقاومة، والبنوية المنطقية، منها، ما زالت في طور نشوئها.

سوف نقصر إذاً، في هذا الموضع، على البنيويات الخاصة بمختلف العلوم، بما يشكل مجد ذاته مجازفة، وكذلك، لكي ننتهي، على حركات فلسفية مستوحاة، على درجات متفاوتة، من بنيويات منحدره من العلوم الانسانية. ولكن يجدر بنا ان نعلق بعض الشيء على التعديد المقترح وان نوضح كيف ان مفهوماً يبدو في الظاهر 'مجرداً' كنظام تحويل مغلق على نفسه، يمكن ان يولد في جميع المجالات آمالاً كبيرة.

٢- La totalité - بدعية هي ميزة الجملة الخاصة بالبنيويات لأن المعارضة الوحيدة التي يتفق عليها البنيويون (بمعنى التوازي النقدية التي تكلمنا عنها في البحث السابق) هي تلك المتعلقة بالبنيات والمجاميع أو تلك المركبة من عناصر مستقلة عن الكل. وتشكل البنية بالطبع من عناصر ولكن هذه العناصر تخضع لقوانين تميز المجموعة كمجموعة؛ وهذه القوانين المسماة تركيبية لا تقتصر على كونها روابط تراكمية ولكنها تضيف على الكل ككل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص العناصر. الأعداد الصحيحة، مثلاً، لا توجد على انفراد ولم يتم اكتشافها في أي ترتيب كان لكي يعاد جمعها في كل، فانها لا تظهر إلا تبعاً لتسلسل الأعداد نفسه وهذا التسلسل يبدي خصائص بنوية، 'فروق' و 'أجسام' و 'حلقات' الخ، متميزة عن خصائص كل عدد، الذي بما يخصه يمكن أن يكون مزدوجاً أو مفرداً أو قابلاً للقسمه بـ ١، الخ. ولكن ميزة الجملة هذه تثير بالفعل عدداً من المشاكل سنحتفظ بالرئيسيتين منها نسبة الى طبيعة الأولى وإلى تكوين الأخرى أو سبق تكوينها.

من الخطأ الاعتقاد ان المواقف العلمية تقتصر ، في جميع الميادين ، على تفاوت : إما التعرف الى الجملات بقوانينها البنيوية ، وإما تركيب ذروي انطلاقاً من عناصر . ونلاحظ ، إذا كان القصد بنيات مميزة او صيفية ، او إذا كان جملات اجتماعية (طبقات اجتماعية او مجموعات كاملة) الخ ... أنه تعارض في تاريخ العلوم ، وبالنسبة الى الافتراضات الترابطية للتمييز أو الفردية لعلم الاجتماع ، نوعان من التطورات ظهر أن الثانية منها فقط موافقة لروح البنيوية المعاصرة . تقوم الأولى على الاكتفاء بقلب المنهج الذي كان يبدو طبيعياً للعقول التي تريد ان تلتجج للطريق من السهل الى الصعب وعلى ترتيب الجملات ، لا أكثر ، منذ الانطلاق حسب نوع من البروز يعتبر قانوناً في الطبيعة . عندما أراد « أوغست كونت » أن يُفسّر الانسان بالانسانية وليس الانسانية بالانسان ، وعندما اعتبر دوركايم ان الكل الاجتماعي ينبثق عن اجتماع الأفراد كما تنبثق الجزئية عن اجتماع الذرات او عندما اعتقد الصيغيون (الجشطالتيون) انهم يميزون ، بين الادراكات الأولية ، جهة فورية مقارنة مع مفعول المجال الكهروطيسي ، كان لهم بالطبع فضل تدكيرنا بأن الكل يختلف عن مجرد جمع لعناصر مقدمة ، ولكن باعتبار الكل سابقاً للعناصر او معاصراً لتناسها ، كانوا يساهمون على أنفسهم المهمة على حساب تقوية المسائل الأساسية لطبيعة قوانين التركيب .

وهكذا ، فمن وراء أشكال الترابط الذروية وأشكال الجملات البارزة ، يوجد وضع ثالث وهو الوضع المتعلق بالبنىوات العملية : وانه الوضع الذي يتدفق موقفاً ترايبياً منذ البدء ، والذي حسب له ليس المهم لا العنصر ولا الكل المفروض ككل دون ان تتمكن من التحديد كيف ، بل العلاقات بين العناصر وبتعبير آخر مناهج او سياقات التركيب (هذا اذا كنا نتكلم عن عمليات عديدة او حقائق موضوعية) . ويكون الكل حصية هذه العلاقات او التراكييب التي تشكل قوانينها قوانين المجموعة .

ونبرز عندئذ مشكلة ثانية أكثر خطورة تشكل بالحقيقة المشكلة الأساسية لكل بنيوية :

هل كانت الجملات التركيبية مركبة دائماً ؟ لكن كيف ومن ؟ أو هل انها كانت قبل ذلك (أو ما زالت) في طور التركيب ؟ ويتميز آخر هل للبنيات تكوين أم انها لا تعرف سوى سبق تكوين أولي تقريباً ؟ والبنوية مدعوة لأن تختار أو تبحث عن حلول للتخطي بين أصول غير مبنية تفرضها الرابطة الذروية وعودتنا عليها التجريبية ، وجملات أو أشكال بلا أصل ترشك باستمرار ان تلحق بميدان الجواهر الصوري للمثل الأفلاطونية أو الأشكال الأولية . وفي هذه الحال يكثر بالطبع تشعب الآراء حول هذه النقطة حتى تصل الى الرأي الذي يعتبر ان مسألة البنية والأصل لا يمكن لها ان تطرح ، كون الأولى لازمنية بطبيعتها (وكان هذا لم يكن اختيارياً وبالتحديد بمعنى سبق التكوين) . تتوضع هذه المسألة التي يثيرها قبل مفهوم الجملة نفسه حالما تتناول يحدية الميزة الثانية للبنيات ، بالمعنى المعاصر للفظه والذي هو اعتبارها مجموعة تحويلات وليس مجرد أي شكل مكوني .

٣ - التحويلات Transformations . - اذا اعتبرنا ان ميزة الجملات البنائية تتمسك بقوانين تركيبها تكون عندئذ بنواة Structurantes يطبيعتها . تفسر هذه الازدواجية الثابتة ، او بكلمة أوضح الثنائية القطبية القابلة لأن تكون دائماً وينفس الوقت بناءة ومبنية ، تفسر بموضع أولي رواج هذا المفهوم الذي يؤمن ، كـ مفهوم « النظام » عند كورنو (حالة خاصة بالنسبة للبنيات الرياضية الحالية) معقوليته بممارسته هو بنفسه . وهكذا لا يمكن لنشاط بنائي إلا أن يقوم على مجموعة تحويلات . .

هذا الشرط المحدد يمكن ان يبدو مفاجئاً إذا عدنا الى المنطلقات السوسورية Saussuriens (فضلاً عن أن سوسور Saussure لم يكن يتكلم إلا عن مجموعة ليميز بين قوانين التقابل والتوازن المتزامنة) . او الى الأشكال الأولى للبنوية النفسية لأن وحدة الصيغة (الجشتالت) (Gestalt) تميز أشكالاً إدراكية بشكل عام وسكونية . والحالة هذه يجب ألا نكتفي

بالحكم على تيار فكري من ناحية وجهته ولا حصره بمصادره، لكننا أيضاً نرى بزوغ الأفكار التحويلية منذ هذه الإنطلاقات اللغوية والنفسية . ان النظام اللغوي المتزامن ليس ثابتاً : فهو يكتسب او يقبل الابتكارات ، تبعاً للحاجات المحددة ، بتعارضات او علاقات النظام دون ان تكون قد شهدت على القور ولادة القواعد التحويلية على طريقة شومسكي ، وسرعان ما يتبدل نوعاً ما ، للتصور اللوسوري للتوازن الحيوي عند بالي الى دراسة الأساليب التي تتناول قبل تحويلات وبالمعنى الضيق للتغيرات الفردية . أما فيما يتعلق بالصفات (Gestalts) النفسية ، وقد تكلم غارغوها منذ البداية عن قوانين « انتظام » تحول المعطى الحواسي والتصورات الاحتمالية التي يمكن ان تعلقنا في يومنا هذا ، فقد شدوا على هذا المظهر المحول للادراك .

في الواقع تُشكّل كل البنيات المعروفة ، منذ الفرق الرياضية الأكثر بساطة وحتى لفئات التي تنظم القرّبي الخ. ، مجموعات من التحويلات ولكن تلك التحويلات يمكن ان تكون لازمنية (لأن $1 + 1$ يساوي فوراً ٢ ، كما أن ٣ تلي ٢ دون فاصل زمني) او زمنية (لأن الاتحاد يتطلب وقتاً) فلو كانت البنيات لا تحتوي على تحويلات من هذا النوع لكانت اختلطت مع أية أشكال سكونية وفقدت أية فائدة تفسيرية تطرح عندئذ قطعاً مسألة مصدر هذه التحويلات وبالتالي علاقتها بمفهوم التكوين بلا زيادة . ويجب أن نغيز بالطبع ، داخل البنية ، بين العناصر التي تخضع لهذه التحويلات والقوانين التي تضبط هذه الأخيرة : ومثل هذه القوانين تستطيع أن تُحمّل بسهولة على أنها ثابتة حتى لنجد داخل بنويات ليست بالضبط شكلية (بمعنى علوم تعميد الاستنباط) عقولاً متميزة وقليلة الميل الى تكوين علم النفس كي يقفز دفعة واحدة من رسوخ القواعد في التحويلات الى فطريتها : تلك هي الحالة مثلاً بالنسبة لـ « نوام شومسكي » الذي تبني له القواعد المولدة ملتزمة بالحاجة للقوانين التحوية الفطرية ، كان الرسوخ لا يمكن أن يفسر بسياقات جبرية التوازن ، وكان الرجوع الى علم الأحياء الذي

تقدمه فرضية فكرية لا يشير مشاكل في التكوين باللغة التعميد كمشاكل تكوين علم النفس (La psychogénèse) .

أما الأمل الضمني لجميع البنيويات المناقضة التاريخية وللوراثية فهو إرساء البنيات نهائياً على أسس لازمنية كما هو الحال بالنسبة للأنظمة المنطقية - الرياضية (ضمن هذا الاعتبار توافق فطرية شومسكي اقنصار نحويتها على بنية شكلية آحادية الفكرة) . وإذا سلم بنظرية عامة للبنيات، عندئذ لا يمكن لها أن تطابق حاجات علمية انضباطية مشتركة قلن يعود ممكناً إلا أن تتساءل، بوجود مجموعة تحويلات لازمنية كثرة أو كشبكة « مجموع الأجزاء » ، عن كيفية الحصول عليها ، سوى بالنفي الى مواطن السمو الإلهية . ويمكن عندئذ أن تنتهج في عملنا قرارات كأن نضع أوليات ، ولكن ، من النظرة العلمية، يشكل هذا طريقة أنيقة للسرقه تقتضي باستغلال العمل السابق لطبقة كادحة من البناتين عوض عن أن نبتي بأنفسنا عدة الانطلاق . أما الطريقة الأخرى التي هي من الناحية العلمية أقل عرضاً للاستلابات القادرة على المعرفة ، فهي طريقة سلالية البنات التي يفرضها التمييز الذي قدمه غوديل : بين القوة أو الضعف الكبيرين تقريباً (راجع الفصل الثاني) ؛ وفي هذه الحالة لا يمكن تجنب مسألة أساسية ، هي غير مسألة التاريخ ولا مسألة تكوين علم النفس لكن على الأقل مسألة بناء البنات والعلاقات غير الانفصالية بين البنيوية والبنائية. وسيكون هذا موضوعاً من مواضعنا .

٤ - الضبط الذاتي L'autorégulation . - ان الميزة الأساسية الثالثة للبنيات هي انها تستطيع أن تضبط نفسها . هذا الضبط الذاتي ، يؤدي الى الحفاظ عليها ، والى نوع من الانغلاق .

وإذا بدأنا بهاتين الحاصلتين ، فانهما تعنيان ، ان التحويلات اللازمة لبنية معينة لا تؤدي الى خارج حدودها ولكنها لا تولد إلا عناصر تنتمي دائماً الى البنية وتحافظ على قوانينها . وهكذا ، حين نجمع او نطرح مطلقاً عددين

صحيحين، لحصل دائماً على أعداد صحيحة ، تثبت قوانين الفريقين الجمعي لهذه الأعداد . وهكذا ، وهذا المعنى ، تطوي للبنية على نفسها ولكن هذا لا يعني أبداً ان للبنية المعنية لا تستطيع الدخول على شكل بنية فرعية ضمن بنية أخرى أوسع مجالاً .

يبقى أن التمديد في الحدود العامة ، لا يلغي أبداً الحدود السابقة ، وهذا لا يوجد إلحاق ، وإنما اتحاد ، ولا تتأثر قواعد البنية الفرعية بل تحافظ على نفسها بحيث يشكل التمييز الذي يكون قد جرى اغناء البنية .

وتفترض ميزات المحافظة هذه ، بالإضافة الى سكونية الحدود ، ضبطاً ذاتياً للبنىات رغم البناء اللامتناهي لمناصر جديدة . وهذه الخاصة الضرورية ، تعزز بدون أدنى شك أهمية المفهوم والآمال التي تنيرها في جميع الميادين . لأننا حين نتوصل الى حصر حقل معين من المعارف ضمن بنية مضبوطة ذاتياً ، يتخيل الينا أننا نمتلك الحرك الخاص للنظام . فضلاً عن أن الضبط الذاتي ، يتم حسب طرق او سياقات مختلفة ، الشيء الذي يُدخِل اعتباراً ما الى سلسلة متزايدة من التعقيد ويعيد بالتالي الى مسائل البناء ومنها بالنهاية الى مسائل التكوين .

في قمة السلم (حتى هذه اللفظة قابلة لأن تجعل حولها التضاربات ، فيتكلم البعض عن قاعدة الهرم فيما نرى نحن هذه القاعدة قلة) ، ينتج الضبط الذاتي عمليات جد مضبوطة وليست هذه الضوابط سوى القوانين الجلية للبنية المعنية . يقال عندئذ ان الكلام عن الضبط الذاتي تلاعب بالألفاظ ، إذ يدور التفكير إما حول قوانين البنية ، ومن البديهي أن تضبطها ، وإما حول العالم الرياضي او المنطقي الذي يعمل ، ومن البديهي ، مجدداً ، أن يضبط أعماله اذا كان في حالة طيمنية .

فاذا ضبطت عملياته جيداً وإذا كانت قوانين البنية قوانين تحويلات ، وبالتالي ذات طابع عملي ، يبقى أن تتعامل عن مساهمة العملية في المنظور البنيوي .

والحالة انها ، من وجهة نظر الاحيائية الآلية Cybernétique (أي علم الضبط) انتظام كامل : وهذا يعني انها لا تنحصر بتصحيح الأخطاء على ضوء نتيجة الأفعال ، بل تكون منها تصحيحاً مسبقاً بفضل أساليب داخلية للمراقبة كالمعكوسية (مثلاً : + س - س = صفر) وهي مصدر مبدأ التناقض (إذا + س - س لا يساوي صفراً فإن س لا تساوي س) . ويوجد من جهة أخرى الفئة الضخمة للبنى المنطقية ، دون حصر المعنى ، او الرياضية أي التي تجري تحويلاتها في الزمان : اللغوية ، الاجتماعية ، النفسية ... الخ ويبدو اذاً بديهياً ان ضبطها الفعلي يفترض في هذه الحالة انتظامات بالمعنى الإحيائي الآلي للفظ ، مرتكزة ليس على عمليات بحتة ، أي معكوسية كلية (بالتعكس او بالتبادلات) ولكن على لعبة استباقات ومفاعيل رجعية Feedbacks ، ينطوي مجال تطبيقها الحياة بكاملها (منذ الانتظامات الفيزيولوجية) والـ Homéostasie او الـ : « pool Génétique du genome » . (راجع الفقرة ١٠) .

وأخيراً تبدو التنظيمات بالمعنى الاعتيادي للكلمة كأنها تتسج تماماً اجراءات بنائية أكثر سهولة ، ومن الصعب رفض حق دخولها الى ميدان البنيات بشكل عام. انها الأوليات الإيقاعية التي تجدها على كل المستويات الحياتية والانسانية^(١) ، في حين ان هذا الإيقاع يؤمن انتظامه الذاتي بالوسائل الأكثر بساطة المجنية على التناظرات والإعدادات .

إيقاعات ، تنظيمات ، عمليات ، تلك هي السياقات الثلاثة الأساسية للضبط الذاتي او الحفاظ الذاتي للبنى . ولكل واحد الخيار في ان يرى فقرات البناء « الحقيقي » لهذه البنيات او ان يقلب التركيب واضعاً في القاعدة الأوليات العملية في شكل لازمني وشبه أفلاطوني ومستخلصاً بعد ذلك كل الباقي .

(١) وقد تأسس منذ بضع سنوات تعليم كامل مختص مع تقنياته الرياضية التجريبية ومكروس علم الإيقاعات والدوريات الإحيائية (إيقاعات دورية تدوم ٢٤ ساعة وعلمة لثائية) .

ونجد أخيراً ان التراكيب التي تربط بين عناصر الفريق هي تراكيب ترتيبية
(هنا [س + ش] + ص = س + [ش + ص]) .

وباعتبارها أساساً في علم الجبر، تكشفت بنية الفريق عن عمومية وخصوصية
عجيبتين، حتى بلقنا نجدها في أغلب الميادين الرياضية تقريباً وفي المنطق؛
والكسبت في الفيزياء أهمية أساسية وأصبح من المحتمل أن نجدها يوماً في
البيولوجيا . من المهم إذاً أن نحاول فهم أسباب هذا النجاح لأنه إذا قُدر
واعتبرنا للفريق بعبارة للبنيات وفي ميادين يجب فيها إقامة البرهان على كل المقدمات،
يعطينا الفريق، عندما يرتدي أشكالاً واضحة، أقوى بواعث الأمل في مستقبل
البنوية .

أولى هذه البواعث هي الشكل المنطقي - الرياضي للتجريد الذي يتجهجه
الفريق والذي يفسر عمومية استعماله . عندما تُكشَف إحدى خواص
الأشياء بالتجريد انطلاقاً من الأشياء نفسها فإنها تُعَلِّمُنَا بالطبع عن هذه الأشياء،
ولكن كلما كانت الخاصة عمومية كلما فَكَّرْتُ وَقُلْتُ استعمالها لأنها تطبق على كل شيء..
وعلى العكس فإن ما يخص التجريد العاكس *Abstraction réfléchissante*
الذي يبرز الفكر المنطقي الرياضي، هو كونه مستقى ليس من الأشياء نفسها،
ولكن من الأفعال التي يمكن ممارستها عليها، وبالأخص من التلسيقات الأكثر
عمومية لهذه الأفعال، كأن نضم ونرتب ونطابق الخ...

وعلى هذا الأساس، فإن هذه التلسيقات للعمومية، هي التي تعود ونجدها
بالضبط في الفريق وقبل كل شيء:

أ - إمكانية الرجوع إلى نقطة الانطلاق (العملية العكسية للفريق) .

ب - إمكانية الوصول إلى هدف واحد بطرق مختلفة ومن دون أن تتغير نقطة الوصول من جراء الطريقة المتبعة (ترتيبيّة الفريق) . أما بالنسبة لطبيعة التراكيب (الوصل reunion) فيمكن أن تكون مستقلة عن الترتيب (فريق تبادلي) أو تتعلق بترتيب ضروري .

وعلى هذا ، تفدو بنية الفريق ، أداة تماسك تحتوي على منطقها الخاص بضبطها الداخلي أو انتظامها الذاتي . وبالفعل يستخدم الفريق بممارسته نفسها ثلاثة من المبادئ الأساسية للعقلانية :

— مبدأ عدم التناقض الذي يتجسد في معكوسية التحويلات .

— مبدأ التطابق الذي يؤمّن نفسه باستمرارية المنصر المحايد ، وأخيراً هذا المبدأ الذي قلما يركز عليه ولكن الذي يبقى مع ذلك أساسياً ، هذا المبدأ هو أن نقطة الوصول تبقى مستقلة عن الطريقة المتبعة .

مثالاً على ذلك ، تشكل الانتقالات في الفراغ فريقاً (لأن انتقالين متتاليين بسيطيان انتقالاً أيضاً ، ولأن أي انتقال يمكن أن يلغى بالانتقال المعاكس أو ما يسمى « بالعودة... الخ ») . وفي هذه الحالة فإن ترتيبيّة فريق الانتقالات التي تناسب قيادة « الدورات » تشكل ضمن هذا الاعتبار نقطة أساسية لتماسك الفراغ لأن نقاط الوصول إذا تغيرت دائماً بفعل الطرق المتبعة فلن يعود هنالك فراغ وإنما تدفق دائم يمكن مقارنته بنهر هيراقليطس .

ثم أت الفريق أداة أساسية للتحويلات ، ولكن لتحويلات عقلانية لا تغير الككل دفعة واحدة . لكن تبقى كل واحدة منها متضامنة مع عنصر لا يتغير . وهكذا عندما يلتقل جسم في الفراغ التقليدي تبقى مقاييسه على حالها . كما أن تجزئة الككل إلى كسور تبقى المجموع الإجمالي لهذه الكسور على ما هو عليه . الخ . وتكفي بنية الفريق وحدها لكشف الميزة المصطنعة للنقيضة التي اعتمد عليها مبرسون

لإرساء علوميته التي تقول بأن كل تبديل كان لاعقلانياً وإن الهوية وحدها تميز العقل . يشكل الفريق ، تنسيقاً لا يتفكك التحويل والحفاظ ، أداة لا تضاهي للبنائية ، ليس فقط لأنه نظام تحويلات وإنما بالأخص لأنه يمكن معايرة هذه الأخيرة بواسطة الفصل بين الفريق والفريق الفرعي وبالطرق الممكنة المرور من أحدهما إلى الفريق نفسه . وهكذا لا يدع فريق الانتقالات قياسات للصورة المتقولة فقط ، ثابتة وإنما أيضاً الزوايا والمتوازيات والخطوط . الخ .

يمكننا عندئذ أن نغير القياسات ونحفظ كل الباقي فنحصل على فريق أعم ، ويصبح عندها فريق الانتقالات فريقاً فرعياً للتشابهات ، ويملك إمكانية تكبير الصورة دون أن يغير شكلها .

ويمكننا بعد ذلك أن نغير الزوايا مع الحفاظ على المتوازيات والخطوط ... الخ . نحصل هنا أيضاً على فريق أكثر عمومية يشكل الفريق الفرعي للتشابه فريقاً فرعياً منه ، وهو ما يسمى بالفريق الفرعي الهندسة المتقاربة التي نستعملها مثلاً حين نحول ممياً إلى معين آخر . ونكل عملنا هذا مغيرين الخطوط فننتوصل بذلك إلى الفريق الإسقاطي (رئائيات Perspectives) تشكل للفرقات الفرعية السابقة متداخلة فيه . ويمكننا أخيراً ألا نبقى حتى الخطوط نفسها ونفتحص أشكالاً مطاطة نحفظ منها فقط بالمقابلات النظرية والمزدوجة التسابع bicontinues بين نقاطها . وعندئذ نحصل على الفريق الأكثر شمولاً والذي يسمى فريقاً homéomorphique المختص بالبيولوجيا . هكذا وعندما نستعمل بنية الفريق لا تعود تشكل الهندسات التي كانت تبدو وكأنها تمثل للنموذج للأوصاف السكونية والتي كانت محض صورية ومجزأة إلى فصول منفصلة ، إلا بناء واسماً تسمح تحويلاته ، نظراً لتداخل الفريق الفرعي ، بالمرور من بنية فرعية إلى بنية فرعية أخرى (هذا فنون أن نتكلم عن علم العروض العام الذي يمكن أن نسندة إلى الطوبولوجيا المستخلص منه علوم أوكليرييه الخاصة غير اقليدية أو الاقليدية euclidiennes والعودة من ثم إلى فريق التقلات) . هذا هو التفسير الجذري من

الهندسة الصورية إلى نظام كامل من التحويلات الذي تمكن من عرضه كلين F. Klein في كتابه الرائع « برنامج ارلنغن » ، وهذا يشكل مثالا أوليا عما يمكن أن نسميه ، والفضل لبنية الفريق ، انتصاراً إيجابياً للبنوية .

٦ - البنيات الأم . - ولكن ذلك لا يمكن أن يُعدَّ إلا نصراً جزئياً لأن الميزة الأساسية لما أسماه بالمدرسة البنيوية في الرياضيات أي مدرسة بروبياكي ، هي انها كانت تسمى لالحساق الرياضيات بفكرة البنية . كانت الرياضيات التقليدية مكونة من مجموعة من الفصول غير المتجانسة (الجبر - نظرية الأعداد - التحليل - الهندسة - حساب الاحتمالات ... الخ) التي يتعلق كل واحد منها بميدان محدود وبأشياء او كائنات محددة بواسطة خواصها الجوهرية . وبما أن بنية الفريق ، استطاعت أن تطبق على العناصر الأكثر شمولاً ، وليس على العمليات الجبرية فقط ، وجدت مجموعة البروبياكي^(١) نفسها مضطرة الى تعميم بحث البنية حسب مبدأ مطابق في التجريد .

فاذا سمينا « عناصر » الأشياء المجردة أصلاً كالأعداد او الانتقالات او الاسقاطات ... الخ (ونرى هنا انه يوجد نتائج عمليات وحتى عمليات متكاملة بنفسها) لا يبقى الفريق مبرراً بطبيعة عناصره بل يتعداها بتجريد جديد ذي درجة أعلى ، وهذا التجريد يقوم على أن نستخلص بعض التحويلات المشتركة والتي نستطيع أن نخضع لها أية نوعية من العناصر ، وبإذات ، كانت أسلوب مجموعة بروبياكي يقوم على استخلاص البنيات الأكثر عمومية بواسطة طريقة تضعها في تشاكلات Isomorphismes ، وعلى اخضاع العناصر الرياضية المختلفة الأنواع لها ، آخذين بعين الاعتبار عدم خصوصية الميدان الذي منه نستقي الأعداد ، وصارفين للنظر كلياً عن الطبيعة الخاصة لهذه الأعداد . وتتركز نقطة الانطلاق اذاً لمشروع كهذا على نوع من الاستقراء ذلك اننا لم نستنتج أولياً العدد او شكل البنيات

(١) مجموعة البروبياكي : اسم مستعار لمجموعة رينيه فرنسيس قاموا بأعمال كثيرة مشتركة.

الأساسية التي نبحث عنها . هذه الطريقة أدت إلى اكتشاف « البنيات الأم »
الثلاث التي تشكل المصادر لكل البنيات الأخرى والمتخذة للتخفيض حكماً فيما
بينها (يأتي العدد ثلاثة نتيجة تحليل تراجمي وليس نتيجة بناء أولي) .

يوجد أولاً « البنيات الجبرية » وبعيها الفريق ، تشمل جميع المشتقات
المستخلصة منه .

تتميز « البنيات الجبرية » بوجود عمليات مباشرة وعكسية بمعنى المعكوسية
بالتفصي (إذا كانت ع العملية وعكسها ع-١ عندئذ : ع-١ × ع = صفر) .
ومن ثم يمكننا أن نفرق « بنيات التنظيم » التي تخص العلاقات والتي يعيها هو
« الشبكة » أو التشابك ، أي بنية مقارنة عموميتها بعمومية الفريق ، والتي درسها
ديد كاليند بيركوف سابقاً . يجمع التشابك عناصره بواسطة علاقات هي « يلي »
و « يسبق » ، ويحتوي على عنصرين الحد الأعلى (أقرب العناصر المتتامة) والحد
الأدنى (أبعد العناصر المتتامة) تطبق الشبكة كالفريق على عدد لا بأس به من
الحالات (مثلاً على مجموعة الأجزاء التي تنتمي إلى مجموعة معينة ^(١)) أو ما يسمى
بـ Simplexc أو على فريق وفريق فرعي . أما الشكل العام لمعكوسية الشبكة
فلا يعود المعكوس بل المقابلة بالمثل ، مثلاً : س × ش تسبق س + ش تتحول إلى
س + ش تلي س × ش حين نستبدل الشارات (×) و (+) والعلاقات « تلي »
و « تسبق » . وأخيراً يمكننا أن نقول أن طبيعة البنيات الأم الثلاث هي طبيعة
طوبولوجية تركز على مفاهيم الحوار والاستمرار والحد .

بعدما حددنا وميزنا هذه البنيات الأساسية نحصل على جميع البنيات الأخرى
ضمن سياقين اثنين : إما بواسطة المزج ، وذلك عندما تخضع مجموعة عناصر إلى
بنيتين في نفس الوقت (مثلاً الطوبولوجيا الجبرية) أو بالتمييز أي فصارضين

(١) إذا اعتبرنا المجموعة م مؤلفة من س جزء نحصل على مجموعة هذه الأجزاء في إذا أخذنا
الأجزاء واحداً واحداً ، اثنان اثنان ... ٩ .

مسلمات محددة لتعريف البنيات الفرعية . (مثلاً الفريق الهندسي المشتق على أنه فريق فرعي والمتداخل بالتوالي) مثلاً على ذلك الفرقات الهندسية المشتقة على أنها تحت فرقات والمتداخلة بالتوالي من فريق الـ Homéomorphie الطوبولوجي (مدخلين في ذلك المحافظة على الخطوط ثم المتوازيات ثم الزوايا (راجع ه) .

يمكننا أن نمر أيضاً من بنيات أقوى إلى بنيات أضعف مثلاً على ذلك شبه الفريق اللترتيبى والذي لا يحتوي عنصراً محايداً ولا عنصراً عكسياً (الأعداد الطبيعية أكبر من صفر) .

ولكي ندمج جميع هذه المظاهر بعضها ببعض ولنساعد على توضيح ماهية المعنى العام للبنيات يبدو ضرورياً أن نتساءل هل ان أسس هذه « الهندسة الممارية الرياضية » (الكلمة لبورباكي) تقدم ميزة « طبيعية » أم أنها تبقى في حيز الأوليات الشكلية . ونعني هنا بكلمة طبيعية ما نعتبه حين نستعمل كلمة أعداد طبيعية لكي نشير إلى الأعداد الصحيحة الموجبة والتي اكتُشِفَتْ قبل أن تُستعمل في الرياضيات والتي أُلِفَتْ بواسطة عمليات مستقاة من التجربة اليومية كصلة المقابلة النظرية المستعملة عند المجتمعات البدائية في التبادل: واحد مقابل واحد، أو في لعب الأطفال وذلك آلاف السنين قبل أن يستعملها كاتطور لتأليف العدد الترتيبى الأول عبر النهائي Premier Cardinal transfini . ومن المدهش الملاحظة ان أولى العمليات التي يستعملها الطفل في طور نموه، والتي تشتق مباشرة من تنسيقات عامة لأعماله المرتكزة على الأشياء، يمكن أن تقسم إلى ثلاثة فئات كبيرة . الأولى حسباً تنتهج معكوسيتها : بالعكس كما في البنيات الجبرية (بشكل خاص في حالة بنيات التصنيف وبنيات الأعداد) أو بالتبادل كما في بنيات التنظيم (في الحالة الخاصة Sériations والصلات Sériales) والثانية ان المجموعات بدل ان تركز على المشابهات او الفارقات تنتهج قوانين التقارب والتتابع والحدود، الشيء الذي يشكل بنيات طوبولوجية جزئية (المعتبرة من

وجهة نظر علم النفس الأصلي سابقة للبنىات المادية والإسقاطية بعكس التتابع التاريخي للهندسات وطبقاً لتنظيم التبعية النظرية (١) .

يبدو إذاً ان هذه الأحداث تشير الى أنت البنىات الأم، التي وضعتها مجموعة بورباكي، توافق، وبشكل بدعي وطبيعي، ان لم نقل ركيك، وبشكل بعيد عن العمومية وعن التعهد الممكن أن تديه على المستوى النظري تسيقات ضرورية، لسير مطلق ذكاه منذ الأطوار الأولى لنشوته .

وبالفعل ليس من الصعب أن نبين ان العمليات الأولى التي تكلفنا عنها تتبع فعلاً تسيقات حمية محرّكة هي نفسها وحيث تحتوي الأفعال التي تستعين بأدوات عند الطفل كما عند الفرد على بنىات بشكل أكيد (راجع الفصل ٤) .

ولكن قبل أن مستخلص ما تعنيه هذه الملاحظات من الوجهة المنطقية، لنذكر ان البنىوية عند مجموعة لبورباكي هي في طور التحول تحت تأثير تيارات من المفيد للتكلم عنه لأنه يبين بشكل جيد أسلوب اكتشاف ان لم نقل تكون البنىات الجديدة . نعي هنا اختراع الفئات (مالك لين وايلنبرغ) أي اختراع طبقة عناصر تحتوي أيضاً على الوظائف التي تحملها هذه العناصر والمراقبة إذاً لا Morphisme .

وبالفعل فان المفهوم الحالي للتابع هو صلة تطبيق مجموعة على مجموعة أخرى او على المجموعة نفسها وتؤدي هكذا الى بناء جميع أنواع التشكلات Isomorphisme او Morphisme وهذا يعني انه، اذا ركزنا على التوابيع، لا تعود الفئات تتمحور على البنىات الأم ولكن على الطريقة العلاقية التي تبينها والتي ساعدت على استخلاص هذه الفئات. من هنا نستطيع أن نعتبر البنية الجديدة مستخلصة ليس من « الموجودات êtres » التي توصلت اليها العمليات السابقة بل من العمليات نفسها والمعتبرة كسياقات « مكونة » . وهكذا تبدو مبررة نظرة بايرت الى الفرق على انها مجهود لالتقاط عمليات رياضي أكثر مما تكون مجهوداً لالتقاط الرياضيات .

هذا مثل آخر عن « التجريد المنمكس » الذي تكلفنا عنه والذي لا يستخلص مادته من الأشياء بل من العمليات الممارسة عليها (حتى عندما كانت الأشياء السابقة مجرد نتيجة لهذا التجريد)^٤ وتبدو هذه الأحداث ثينة حقاً فيما يتعلق بطبيعة وأسلوب بناء البنيات .

٧- البنيات المنطقية . - يبدو المنطق لاهل الأولى وكأنه يشكل ميداناً متميزاً للبنيات لأنه يتم بأشكال المعرفة وليس بمحتوياتها . وأكثر من ذلك عندما نثير مسألة (غير منظورة جيداً عند المنطقيين) المنطق الطبيعي (بالحق اندي-أوضحناه في الفقرة ٦) للأعداد الطبيعية، نلاحظ فوراً ان المحتويات التي تستعملها الأشكال المنطقية لا تزال تحتوي هي أيضاً على أشكال موجبة باتجاه الأشكال المنطقية . وأشكال المحتويات هذه تشتمل على محتويات أقل اعداداً ولكنها تمتلك هي الأخرى أشكالاً، وهكذا موائيك يشكل كل عنصر احتواءً للعنصر الأعلى منه وشكلاً للعنصر الأدنى، ولكن اذا كان تداخل الأشكال ونسبية الأشكال والمحتويات مفيداً جداً لنظرية البليوية فإنه لا هم المنطق إلا بشكل غير مباشر فيما يتعلق بمسألة الحدود ومسألة التعميد (راجع فقرة ٨) .

وبأخذ المنطق الرمزي او الرياضي (الأكثر شهرة اليوم) مكاناً غير محدد في هذه الخطوة التصاعدية ولكن مع لنية الصارمة بأن نجعل منه ابتداءً مطلقاً، وحكمة هذه النية هي انها يمكنه التحقيق بفضل طريقة الأولويات. وبالفعل، يكفي ان نختار نقطة انطلاق، عدداً من المفاهيم المتباعدة غير قابلة للتحديد بشكل تساهم به في تحديد المفاهيم الأخرى، وافراضات معتبرة غير قابلة للبرهان (نسبة للنظام المختار لأن اختيارها عشوائي) تساهم هي أيضاً في عملية البرهان .

ولكن يجب على هذه المفاهيم الأولية ان تكون كافية متطابقة ومحصورة بقدر المستطاع وبكلمة أخرى ألا تكون مسببة . ويكفي بعدئذ ارت نعطي أنفسنا قواعد البناء ، على شكل منهج عملي ، ويقود التعميد عندئذ نظاماً

يكتفي بذاته ومن دون أن يستعين بمحس خارجي 'يحتل نقطة انطلاقه معنى مطلقاً'. تبقى بالطبع مسألة الحدود العليا للتعقيد والمسألة المعنوية لمعرفة ما تغطيه المعطيات غير المحددة وغير المبرهنة ولكن من وجهة النظر الشكلية التي ينطلق منها المنطقي . نجد هنا المثال الوحيد بلا شك لاستقلال جذري بمعنى ضبط داخلي محض أي على الانتظام الذاتي التام .

يمكننا إذا أن ندعم من وجهة نظر أوسع، الفكرة القائلة أن كل نظام منطقي (عدد هذه الأنظمة لامتناهي) يشكل بنيه لأنه يحتوي على ثلاث ميزات :
ميزة الجملة • ميزة التحويلات وميزة الضبط الذاتي .

ولكننا نغني هذا من جهة أخرى، البنيات الخاصة بها، وسواء أذكرناه أم لم نذكره فإن الهدف الباطني للبنوية هو الوصول إلى البنيات الطبيعية . هذا التصور السيء السمعة والغامض بعض الشيء يغطي اما فكرة التجذير العميق في الطبيعة الانسانية (مع خشية الرجوع إلى الأولية) واما بالعكس فكرة وجود مطلق مستقل بمعنى ما عن الطبيعة الانسانية التي يجب أن تتكيف فقط (يخشى من هذا المعنى الثاني الرجوع إلى الجواهر السامية) ، ونعني من جهة أخرى (وهذا أشد خطورة) أن أي نظام في المنطق يشكل جملة متقلة فيما يتعلق بمجموعة النظريات التي يبرهنها، ولكن ذلك لا يشكل إلا جملة نسبية لأن النظام يفتح من الأعلى فيما يتعلق بالنظريات التي يبرهنها (بالأخص النظريات غير المقررة من جراء حدود التعقيد) ويفتح من الأسفل لأن مفاهيم وفرضيات الانطلاق تغطي عالمًا من العناصر الضمنية .

لهذه المسألة الأخيرة بشكل خاص اهتمت البنيوية التي يمكن تسميتها بالمنطقية صاحبة النية الواضحة بالبحث عما يمكن أن يوجد « تحت » عمليات الانطلاق المقننة بالأوليات والذي وجدناه، يشكل قطعاً مجموعة من البنيات الصحيحة والمقارنة ليس فقط، بالبنيات الكبيرة التي يستعملها الرياضيون والتي تفرض حدسياً

بشكل مستقل عن تقييمها بل تتطابق مع بعض هذه البنيات وتدخل عندئذ فيا نسميه اليوم الجبر العام والذي يشكل نظرية للبنيات .

من المثير للاهتة بشكل خاص، هو أن منطق «بول» أحد أكبر مؤسسي المنطق الرمزي في القرن التاسع عشر يشكل جبراً يدعى جبر بول . هذا الجبر الذي يغطي بشكله التقليدي منطق الطبقات ومنطق الافتراضات، يقتاسب من ناحية أخرى مع علم الحساب (Modues) أي علم يحتوي على قيمتين اثنتين فقط صفر وواحد . والحالة هذه يمكننا ان نستخلص من هذا الجبر بنية «شبكة» (راجع فقرة ٦) حين نضيف الى الخواص المشتركة لجميع للشبكات الميزات الآتية : ميزة الاستفراق distributivité وميزة احتواء عنصر أقصى وعنصر أدنى ، وخاصة الميزة التكاملية (يحتوي بذلك كل عنصر على عكسه او على نقيضه) . عندما يمكننا ان نتكلم عن «شبكة بول»، تسمح لنا من ناحية أخرى كل واحدة من الممثلتين «البوليتين» بعملية الفصل الكلي (أو (م) أو (ش) وليس الاثنتين معاً ، وعملية التعادل بتشكيل كل فريق على حدة ، وكل واحد من هذه الفرق يمكن ان يتحول الى حلقة تبادلية ^(١) ، نجد بذلك في المنطق البنيتين الرئيسيتين المستعملتين غالباً في الرياضيات، وفوق ذلك يمكننا ان نستخلص قريباً أكثر عموماً كعالة خاصة فريق الرباعية عند كلين groupe de quaternality de Klein .

لنأخذ عملية كمالية لتوافق س=ش: اذا عكسنا هذه العملية (ن) نحصل على س x ش (مما ينقض التوافق) اذا قلبنا طرفي التوافق او بشكل أبسط اذا حافظنا على شكلها ، ولكن مع الافتراضات المتقوضة س=ش ، نحصل على البديل (ب) مما يؤدي إلى ش=س . لنأخذ المعادلة س=ش هذه المعادلة يمكن ان تكتب :

(١) راجع ج - ب - غرايز المنطق ص ٢٧٧ في كتاب المنطق والمعرفة العلمية «بياجيه» Encyclopédie de la pleiade .

من $x \vee \bar{x}$ ش $x \vee \bar{x}$ ش (إذا استبدلنا الآن في هذه المعادلة الجديدة \vee و \times) نحصل على الارتباط المتبادل (أ) المتعلق به للمعادلة من \bar{x} ش أي نحصل على \bar{x} ش . وأخيراً إذا حافظنا على المعادلة $\bar{x} \vee x$ بدون تغيير نحصل على التحويل المطابق ت والحالة هذه نحصل بطريقة تبادلية على المعادلة $\bar{x} \vee x = \bar{a} \vee a$ أو $\bar{x} \vee x = \bar{b} \vee b$ أو $\bar{x} \vee x = \bar{n} \vee n$.

نحصل هنا على فريقين يحتوي أربعة تحويلات تماماً بحيث تمنح عمليات منطق الافتراضات المزدوجة bivalente (سواء أكانت هذه الافتراضات مزدوجة أو مثلية ... الخ) من الأمثلة بمقدار ما يمكننا أن نشكل من الرباعيات (quaternes) بواسطة العناصر الموجودة داخل « مجموعة أجزاء » الفريق ذي الأربع تحويلات^(١) نجد بالنسبة الى بعض هذه الرباعيات معادلات خاصة :

(١) هذا الفريق أ ، ن ، و ، ت الذي تكلفنا عنه في عام ١٩٤٩ في (كتاب المنطق) استتبع تليفاً من مارك باربوت (الأزمئة الحديثة تشرن ١٩٦٩ عدد ٢٤٦ مسائل البيلوية) مما يؤدي الى سره تقاعص . اذا دعنا مفهوم العمليات أ ن ب ت وحولناه الى شكل أبسط نجد ان في للمعادلة $(A \vee B) \times C$ حيث يمكننا ان نبسط التحويلات الثلاثة الباقية :

- ١ - تغيير A changer A .
- ٢ - تغيير C changer B .
- ٣ - تغيير C و C بنفس الوقت .

هذا لن نكون قد حققنا سوى تماثلات بيننا يفترض الفريق أ ، ن ، ب ، ت بالعكس ليس الحالات الأربعة في أية لائحة كمتناسر :

$$\begin{array}{ccccccc} \bar{A} & \bar{B} & C & \bar{A} & B & A & \bar{B} \\ \bar{A} & \bar{B} & C & \bar{A} & B & A & \bar{B} \end{array}$$

واعداً الستة عشر تليفاً الموجودة في مجموعة تحويلاته « او الـ ٢٥٦٠ » تليفاً للافتراضات الثلاثة « فلنا لا يظهر الفريق نفسياً الا في مستوى ما قبل المراجعة بيننا تظهر النماذج السبعة الكونة لفريق تحتوي أربعة عناصر والتي ذكرها باربوت Barbut سنة ١٩٦٩ في مرحلة السنوات السبع او الثمانية الأولى .

ت = ب أو ن - أ أو ن = ب ولكن لا نحصل بالطبع أبداً على المعادلة
ت = ن . يبدو واضحاً بالاجمال أنه يوجد « بنيات » بكل ما للكلمة من معنى
في علم المنطق وتزداد أهميتها لنظرية البنيوية بمقدار ما تتبع تكوين علم النفس
في تطور الفكر الطبيعي ، توجد إذا هنا مشكلة من الأفضل الرجوع إليها .

٨ - الحعود البديلة للتعميد الاستنباطي . - ولكن التفكير في البنيات
المنطقية يقدم فائدة أخرى للبنيوية بشكل عام . تبدو هذه لفائدة في تبيان
بماذا لا تختلط البنيوية مع تعميدها وبماذا تنتج هكذا بالنسبة لحقيقة طبيعية
ستجهد في تبيان معناها شيئاً فشيئاً . في عام ١٩٣١ قام كيرت غودل باكتشاف
أحدث دويماً ضخماً لاتهامه الآراء السائدة التي كانت تهدف الى ضم الرياضيات
لعلم المنطق ومن ثم ضمها للتعميد الصافي ، ولأن هذا الاكتشاف فرض على هذه
الآراء حدوداً لا شك متحركة او تبديلية ولكنها موجودة في أي وقت كان من
عملية البناء . فقد برهن غودل بالفعل ان مطلق نظرية خفية ومتماسكة ، كعلم
الحساب البسيط ، لا يمكن ان تتوصل بوسائلها الخاصة او بوسائل أخرى
« أضعف » (أضعف في حالة منطق وايتهيد وراسل أي منطق « المبدأ الرياضي »)
الى برهان عدم التناقض الخاص بها . وبالفعل اذا تمسكت بأدواتها الخاصة
تصل الى افتراضات غير مفررة ولا تصل بالتالي الى الاشباع . وبالعكس فقد
وجد فيما بعد ان هذه البراهين غير المحققة في صميم نظرية الانطلاق تقدم ممكنة
اذا استعملنا وسائل أقوى . هذا ما حصل عليه جناترن في حسابه البسيط حين
اعتمد على حساب كانطور غير النهائي .

ولكن علم الحساب هذا لا يكفي لتكلمة نظامه الخاص ولكي تتوصل الى
ذلك يجب ان نلجأ الى نظريات من نوع أسمي . والفائدة الأولى التي نجنيها من
هذه الملاحظات هي انها تدخل في مفهوم كبر القوة او الضعف التقريبيين للبنيات

في ميدان محدود حيث يمكن مقارنتها. وكما أوجى تدرج الخواص بالتطور، في علم الاحياء ، برحي التدرج الذي قدمناه بفكرة كاملة للبناء. ويبدو بالفعل معقولاً ان تستعمل بنية ضعيفة وسائل أكثر بساطة ، وان يتناسب مع القوة المتصاعدة ، أدوات معقدة الأعداد . والحالة ان هذه الفكرة للبناء ليست مجرد تصور فكري ، ويسمى التعلم الأساسي الثاني في اكتشافات غودل ، الى فرض هذه الفكرة بطريقة مباشرة لأننا اذا أردنا إكمال نظرية ما، عن طريق برهانها، وليس عن طريق عدم تناقضها لا يكفي ان نحلل الافتراضات المبدئية بل يصبح ضرورياً ان نبني الفكرة التالية .

كان يكفينا حتى الآن ان نعتبر ان النظريات تشكل هرمًا جيلاً ، يرسو على قاعدة مكثفة بنفسها ، ويكون الطابق السفلي هو الطابق الأكثر صلابة لأنه مصنوع من الأدوات الأكثر بساطة ، ولكن ، اذا كانت البساطة دليل ضعف واذا توجب ان نبني طابقاً من أجل تدعيم الطابق الذي يسبقه ، يبدو عندئذ ان تماسك الهرم أصبح متعلقاً بقمته . وهذه اللقمة الغير مكتملة بنفسها يجب ان ترفع بدون انقطاع .

من هنا يجب ان نقلب عندئذ هذه الصورة الهرمية وان نستعاض عنها ، بالتعديد، بصورة لولبية ، تتوسع دوائرها كلما صعدت . وبالفعل تصبح عندئذ فكرة البنية المتغيرة كنظام تحويلات مرتبطة ارتباطاً شديداً بينائية التكوين المتصل . وبهذه الحالة فان سجة هذه الظروف تبدو سهلة بشكل كاف وبعتناول عام كاف . استخلص غودل من النتائج التي توصل اليها اعتبارات هامة بما يخص حدود التعميد ، ولقد أمكن برهان وجود مستويات مختلفة من المعارف نصف الشكلية ونصف الحدسية او من المعارف التقريبية على درجات متنوعة ، وذلك بالاضافة الى المستويات الشكلية . وهذه المستويات تنتظر اذا أمكننا القول دورها من التعميد .

تبدو إذاً حدود التقعيد متحركة وعرضية vicariantes وليست منفصلة نهائياً كالأسوار المحددة لطلق امبراطورية، وفي هذا المجال اقترح لادريير، تفسيراً حافظاً يقول فيه : « لا يمكننا ان نؤمن على جميع العمليات الفكرية دفعة واحدة »^(١)، وهذا الاقتراح يبدو تقريباً أولياً صحيحاً، ولكن نجد من ناحية أولى، ان عدد العمليات الممكنة في فكرنا ليس محدوداً بشكل نهائي، ومن ناحية أخرى ان قدرتنا على الهيمنة الفكرية تتغير باستمرار مع النمو الفكري، حتى غداً من الممكن توسيعها .

وبالعكس فإذا عدنا الى نسبة الأشكال والمحتويات التي ذكرنا بها في الفقرة (٧)، تتسك عندئذ حدود التقعيد بنفي الشكل كشكل، والمحتوى كمحتوى. ويلعب كل عنصر، من الأفعال الحركية الحسية الى العمليات (او من هذه الى النظريات...)، نفس الوقت، دور الشكل بالنسبة للمحتويات ودور المحتوى بالنسبة للأشكال العليا . وهكذا فان الحساب البسيط « يكون » شكلاً « لا يشك به ولكنه يصبح محتوى » في الحساب عبر النهائي (بمثابة قوة معدودة) . والنتيجة ان التقعيد الممكن لمحتوى معين يبقى محدوداً تبعاً لطبيعة هذا المحتوى.

ولا يوصلنا تقعيد « المنطق الطبيعي » الى بعيد بالرغم من ان هذا المنطق يكون شكلاً بالنسبة الى الأفعال الحسية . بينما يوصلنا تقعيد « الرياضيات الحديثة » الى أبعد بكثير، بالرغم أنه يعدلها لكي يستطيع ان يعالجها شكلياً.

والحالة اتنا اذا وجدنا أشكلاً عند جميع طبقات التصرف الانمالي وحق التصورات الخيالية الحسية المحركة وعند حالاتها الخاصة من التصورات الخيالية المسركة... فهل يمكننا ان نستنتج ان مطلق شيء يشكل « بنية » ونهني عرضنا هاهنا . ذلك ممكن وفقاً لأحد المعاني، ولكن بمعنى ان كل شيء ممكن البناء

(١) دياكتيكا Dialectica . التاسع ، ١٩٦٠ صفحة ٣٢١ .

في $structurable$ ولكن البنية بما هي نظام تحويلات منضبط ذاتياً ، لا تطابق مع أي شكل : يشكل كوم من الحيازة بالنسبة اليها شكلاً (لأنه يوجد حسب طريقة غيمنتالت أشكالاً رديئة كما يوجد أشكالاً جيدة ، فقرة ١١ ، ولكن هذا للكوم لا يمكن ان يصبح بنية إلا اذا أعطينا أنفسنا نظرية مدققة ، تساهم في ادخال النظام الكامل لحركتها غير الحقيقية .

وهذا يؤدي بنا الى الفيزياء .

٩ - البنيات الفيزيائية ومبدأ السببية . - بما ان البنيوية هي الهينة النظرية التي جددت علوم الانسان والتي لا تزال تلهم حركات العلوم الطبيعية ، كان من المهم أن تبدأ بفحص ما يعنيه هذا المفهوم في الرياضيات وفي المنطق . ولكن يمكن ان تتساءل أيضاً عما يعنيه في الفيزياء ؟ وذلك لأننا لا نعلم مبدئياً اذا كانت البنيات تتعلق بالانسان او بالطبيعة او بالاثني معاً ، ولأن الربط بين الاثني يجب ان يُبحث عنه في ميدان التفسير الانساني لظواهر الطبيعة . كان المثال العلمي الفيزيائي ولادة طوية يركز على قياس الظواهر وعلى إثبات القوانين للكمية وعلى تفسير القوانين بالرجوع الى مفاهيم كفاهيم التسارع ، ومعامل الكثافة ، والعمل ، والطاقة ، يتحدد الواحد منها تبعاً للآخر بطريقة تصون مبادئ الحفاظ على تماسكها .

لهذا اذا تكلمنا عن البنيات في هذا الطور التقليدي من الفيزياء ، نكون قد عنينا كبرى النظريات التي تنضبط في داخلها للعلاقات في نظام علانقي ، كما في نظرية النسور الذاتي ، ونظرية تساوي الفعل ورد الفعل ، والنظرية التي تعتبر القوة كنتيجة لمعامل الكثافة والتسارع عند نيوتن ، او كما في نظرية تبادل السياقات الكهربائية والمغناطيسية عند ماكسويل .

ولكن منذ ترزعع « فيزياء المبادئ » « physique des principes » وتوسع البحث الى مستويات قصوى ، عليا ودنيا في سلم للظواهر ، ومنذ انقلابات

الرؤى غير المتوقعة كالحاق علم الحيل بالكهرطيس *Electromagnétisme* نشهد
تثميناً مضطرباً لفكرة البنية .

وغدت نظرية القياس، النقطة الحساسة في الفيزياء المعاصرة حتى بات البحث
عن البنية يسبق القياس . وأصبحت البنية تُفهمُ على أنها مجموعة حالات
وتحويلات ممكنة يأخذُ في داخلها النظام الحقيقي المدروس موقعاً معيناً ويُفسر
هذا الموقع تبعاً لمجموع الممكنات . والمسألة الأساسية التي يثيرها هذا التطور
للفيزياء في البنيوية، تصبح عندئذ مسألة طبيعة السببية وعلى وجه التحديد مسألة
العلاقات بين البنيات المنطقية - الرياضية المستعملة في التفسير السببي للقوانين
والبنيات المفترضة من الواقع . إذا اعتمدنا على نظرية الوضعية *positivisme* في
تفسير الرياضيات، على أنها مجرد أسلوب بسيط، لما عاد هناك بالتأكيد مشكلة،
ولاقتصر العلم بمجد ذاته على مجرد وصف . ولكن ما إن نعترف بوجود البنيات
المنطقية أو الرياضية كنظام تحويلات إلا يُطْلَبُ إثبات المسألة التالية :
هل إن هذه التحويلات الشكلية بعينها هي التي تُطعننا منفردة بالتغييرات
والحفاظات الحقيقية المشاهدة في الظواهر . أو بالعكس إن البنيات المنطقية لا
تشكل إلا انعكاساً مستتبناً في داخل عقلنا للإوالات اللازمة للسببية الفيزيائية
الموضوعية والمستقلة عنها، أو أخيراً هل يوجد، بين هذه البنيات الخارجية والبنيات
المتعلقة بعملياتنا ، رابط دائم لا يطابقها ورابط نجده في مجرى عملنا مجسداً
تجسيداً حسياً في ميادين متوسطة كميادين البنيات البيولوجية أو ميادين أفعالنا
الحسية المحركة .

في مطلع هذا القرن اتجهت نظريتان من أكبر نظريات السببية إلى الحالتين
الأولتين من هذه الحلول الثلاث . يصور ميرسون *Meyerson* السببية ك مفهوم
أولي لأنها تقتصر على تطابق المتنوع، ويحدد برونشفيك *L. Brunschvicg* السببية
بالقاعدة « يوجد كون » (بالمفهوم النسبي) ، ولكن الصعوبة الواضحة التي يجلبها
الأول من هذين النظامين، هي أنه لا يفسر إلا الحفاظات ويعمد التحويلات، مع

أنها ضرورية بالنسبة للبيئة في ميدان « اللاعقلانية » . أما النظام الثاني فمن نتيجته إلحاق البنات العملية بالبيئة واعتبار الحساب كعلم « فيزيائي - رياضي » (بالرغم عن كل ما قيل حول المثالية البرونشفيكية ^(١)) . ولكن يبقى ان تخضع هذه الفرضية الى تدقيق نفسي - بيولوجي psychobiologique وعندما نعود الى الفيزياء نجد أمامنا التأكيد التالي : ان الاستنتاج الرياضي المنطقي لمجموعة من القوانين لا يكفي لتفسير هذه القوانين ما دام هذا الاستنتاج استنتاجاً شكلياً : يفترض التفسير وجود كائنات او « أشياء » تحت الظواهر ووجود تأثيرات واضحة لهذه الكائنات على بعضها البعض . والمثير للدهشة هو ان هذه التأثيرات تشبه في بعض الحالات ، الى حد كبير بعض العمليات . وعلى وجه التحديد بمقدار ما توجد صلة بين التأثيرات والعمليات بمقدار ما نشعر اننا « نفهم » ولكن الفهم والتفسير لا يقتصر إطلاقاً على تطبيق عملياتنا على الواقع ولا يقتصر على ملاحظة ان هذا الواقع « يستلم » لعملياتنا . ان أي تطبيق بسيط يبقى داخلياً على مستوى القوانين ، ولكي نتخطاه ونصل الى الأسباب ، يطلب منا أكثر من ذلك : من الضروري إسناد هذه العمليات الى الأشياء المتصورة كأشياء وأن نتصور ان هذه الأخيرة تشكل رمزاً حسابياً opérateur ^(٢) بمجد ذاتها .

عندئذ ، وعندئذ فقط ، يمكننا ان نتكلم عن « بنية » مبنية . هذه البنية هي المجموعة « الموضوعية » لهذه الرموز بما يخص علاقاتها المشتركة للفعالية . من وجهة النظر هذه يبدو الاتفاق الدائم بين الحقائق الفيزيائية والأدوات الرياضية المستعملة لوصفها مثيراً للدهشة ، لأن هذه الأدوات غالباً ما تكون قد وجدت قبل استعمالها ، وعندما بنيت نتيجة لحدث جديد ، لم تستخلص من هذا الحدث الفيزيائي بل أعدت بطريقة استنتاجية حتى المشابهة . والحالة ان هذا الاتفاق

(١) مفهوم شائع الاستعمال في الفيزياء الجزئية وحيث تستعمل الكليات المشاهدة بمرور مقاربة . ولكن هذا المفهوم يعم ليشمل المعنى الذي نعطيه إياه هنا .

لا يشكل اتفاق لغة مع الأشياء المعينة فحسب كما تتقدمه « النظرية الوضعية » لأنه ليس من عادة اللغات ان تعكس مبعثاً عن الأحداث التي تصفها بل تشكل اتفاقاً للعمليات الانسانية مع عمليات الأشياء الرموز *objets - opérateurs* وبالتالي يشكل هذا الاتفاق تناغماً بين هذا الرمز الخاص (او هذا الصانع للعمليات المدببة) ، الذي هو الانسان يحده ويعقه ، وبين هذه الرموز غير المحدية التي تشكل الأشياء الفيزيائية على جميع المستويات . نجد هنا اذن إما البرهان الساطع عن هذا التناغم السابق الإثبات بين جواهر الأفراد *monades* المغلفة المصراعين التي كان يحلم بها لايبنتز *Leibnitz* ، وإما اذا كان هذان المصراعان مفتوحين صدفة وليس متعلقين ، أجل مثال على التكييفات البيولوجية المعروفة (أي الفيزيائية – الكيميائية والمعرفية معاً) .

اذا صح ذلك فيما يتعلق بالعمليات بشكل عام فإنه يبقى صحيحاً فيما يتعلق بآئمة « البنيات » العملية . مثلاً على ذلك نعلم جيداً ان بنيات الفريق مستمدة بشكل عام في الفيزياء منذ المستوى الفيزيائي الجزئي *microphysique* وحتى علم الحيل الساوي النسبي *Mécanique céleste relativiste* . والحالة أن هذا الاستعمال ذو فائدة كبرى فيما يتعلق بالصلات بين بنيات الوضع العملية والبنيات الخارجة والموضوعية .

ضمن هذا الاعتبار يمكننا ان نميز بين ثلاث حالات : نجد بادىء ذي بدء الحالة التي بها يتمتع الفريق بقيمة كشفية *heuristic* بالنسبة للفيزيائي ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار اننا لا نمثل فريق الرباعية *quaternarité P G T* حيث *P* الشفوية *parité* (تحويل من شكل خارجي *configuration* الى شكله المقابل في المرآة) وتعني *C* الشحنة *charge* (تحويل من الجزئي *particule* الى مقابل الجزئي *antiparticule*) وتعني *T* عكس معنى الزمن *inversion du sens du temps* . ثم نجد الحالة التي بواسطتها تستنتج التحويلات

من الأعمال المادية المُختبر، الذي يعالج المعاملات او ينسق بين القراءات الممكنة بواسطة أجهزة قياس يلاحظها مراقبون في حالات مختلفة، دون ان تشكل هذه التحويلات سياقات فيزيائية مستقلة عن الفيزيائي .

احدى إنجازات فريق لورنتز Lorentz تطابق مع هذه الحالة الثانية عندما تدخل بعض التفسيرات على نظام المراجع référentiel ، فتتنسق بين وجهي نظر مراقبين منطلقين بسرعتين مختلفتين ، عندئذ تصبح تحويلات الفريق تحويلات الموضوع، ولكنها ممكنة لتحقيق فيزيائياً في بعض الحالات، الشيء الذي يبرهنه الانجاز الثاني لفريق لورنتز عندما تتكامل عن تحويلات حقيقية يمارسها نفس الموضوع على النظام المدروس . يوصلنا هذا الى الحالة الثالثة حيث تتعلق تحويلات الفريق فيزيائياً بصرف النظر عن معالجات المختبر ، او حين تكون هذه التحويلات مهمة من الناحية الفيزيائية، وذلك في الحالة « التقديرية » او الكاملة . وتتمثل هذه الحالة بتركيب القوى التي تشكل ، ومعها تفسير حالات توازن القوى ، بنية توضيحية واسعة تركّز على بنية الفريق . وقد دعم ماكس بلانك ، الى جانب السببية الفاعلة الفكرة التي تخضع الظواهر الفيزيائية بشكل شبه كلي الى مبدأ الفعل « الأدنى » : والحالة ان هذا المبدأ يتعلق « بعلّة نهائية » تعمل بالمكس في المستقبل ، أو بتحديد أكبر يتعلق بنهاية معينة ، الشيء الذي يتبعه تسلسل السياقات التي توصل اليه^(١) . ولكن قبل ان نمنح الضوئيات (photons) في داخل الشعاع الضوئي chemin optique الأقصى ، برغم جميع الانكسارات التي تعترضه عند عبور طبقات الجو ، امكانية التعرف كـ « كائنات مجهزة بعقل » بالمزيد الى كوننا منحناها صفة الرموز opérateurs ، يبقى ان نتساءل كيف يتحدد في هذه الحال تكامل فيرمي integrale de Fermat الذي يساوي قيمة دنيا بالنسبة الى كل الطرق المجاورة . والحالة اننا نجد هنا مجدداً ، كما في حالة « الأعمال الفرضية » «travaux virtuels»

(١) Max Planck, «L'image du monde dans la physique moderne»

تفسيراً بواسطة التعديل شيئاً فشيئاً بين جميع التغيرات الممكنة في جوار الطريق الحقيقي ، ذلك اذا وضعنا الواقع ضمن التحويلات الممكنة . وأخيراً يبدو أكيداً هذا الدور للتحويلات الممكنة في حال التفسيرات الاحتمالية probabilistes : تفسير المبدأ الحراري principe therodynamique بواسطة نمو الاحتمال (أي التصور الحراري entropic) ، يتوجب علينا من جديد تحديد البنية بتركيب مجموع المكونات لكي نستنتج منها الواقع (لأن الاحتمال هو خارج قسمة عدد الحالات الملائمة على عدد هذه الحالات الممكنة) وذلك بالرغم اننا نمي هنا بلامتبادلية معاكسة لتركيبات الفريق .

يوجد اذاً بالأجمال بذيات فيزيائية مستقلة عنا ولكنها تتناسب مع البنيات العملية حتى في الميزة التي يمكن أن تظهر على أنها خاصة بنشاطات الفكر والتي تتعلق بالمكن والتي تدخل الواقع في نظام للفرضيات système des virtuels . وتطرح هذه الصلة بين البنيات السببية والبنيات العملية والمفهومة في حالة يعتمد فيها التفسير على نماذج مبنية جزئياً بطريقة مصطنعة او في الحالات الخاصة بالفيزياء الجزئية وحيث لا ينفصل تتابع السياقات عن عملية المختبر (من هنا الغاية التي ينشدها اديفتون Eddington الذي يقدر أنه من الطبيعي جداً ان نجد بدون انقطاع أشكالاً « للفريق » (تطرح مشكلة عندما تبين التحقيقات العديدة موضوعية البنية الخارجة عنا . ويُقدّم التفسير الأكثر سهولة في هذه الحالة على التذكير منذ البدء بأننا نجد السببية في سلوكنا وليس في سلوك الأنا بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة عند ماين دو بيران Maine de Biran ، بل في السلوك الحسي المحرك والآلي حيث يكتشف الطفل للقل في الحركة ودور الدفع والمقاومة .

والحالة ان السلوك هو مصدر العمليات ليس لأنه يحتوي هذه العمليات مسبقة ، كما ليس لأنه يحتوي كل السببية ، بل لأن ارتباطاته العامة تحتوي على بنيات جزئية كافية لأب تشكل نقطة انطلاق للتجريدات المعاكسة والى البناءات اللاحقة . ولكن ذلك يوصلنا الى البنيات البيولوجية .

١٠ - البنيات العضوية . - يشكل الجسم الحي في نفس الوقت نظاماً فيزيائياً كيميائياً بين الأنظمة الأخرى، ومصدر نشاطات الشخص الذي تدرس انفعالاته . اذا (كما قدمنا في الفقرة ١) كانت البنية نظاماً كاملاً من التحويلات المتضبطة ذاتياً ، يشكل عندئذ الجسم الحي بعبارة prototype للبنيات واذا كما نعرف بنيته بشكل محدد فإنه يمنعنا مفتاح البنيوية نظراً لازدواجية طبيعته ك موضوع فيزيائي مركب ومحرك للتصرف . ولكننا لم نصل بعد الى هذا الحد . فالبنيوية البيولوجية الحقيقية لا تزال بعد في طور التكوين بعد قرون من التخفيضية réductionnisme المسهلة او الحيوية vitalisme الشفعية أكثر مما تكون تفسيرية . وهذا الاعتراف الضمني بالتراجع الذي يقدمه لنا شكل التطوير بواسطة التغيرات المفاجئة والمنسقة بعد ضربه ، والذي لا يزال للأسف على درجة من الاحترام في ميادين عدة . بهذا نكون قد نسينا حدثين أساسيين الأول ان الفيزياء لا تنتج الجمع التراكمي للمعلومات ، وأن الاكتشافات الجديدة تؤدي بنا الى اعادة صياغة المعلومات أ ، ب ، ج ... الخ وتبقى هكذا مجهولات المستقبل من م ، ن ... الخ ، والحدث التالي هو أن في الفيزياء نفسها تؤدي تجارب التخفيض ، من الكهراطيسمية الى الأولية ، تؤدي بعكس التركيبات الجمعية او المطابقة الى تركيبات حيث يفتني الأدنى من الأعلى وحيث يضع التمثيل الماكس assimilation réciproque ، الذي يستنتج من التركيبات ، في حيز الوجود بنيات المجموع . يمكننا بذلك ان نتظر ، من دون ان نقلق ، حدوث التخفيضات من الحيوي الى الفيزيائيميائي ، لأنها لن تخفف بالفعل شيئاً بل تحول لصالحها حدي التناسب . وتجارب التخفيض هذه المسهلة والمعاكسة للبنيوية antistructuralistes ، عورضت من قبل النظرية الحيوية بواسطة أفكار الجملة والقصدية finalité الداخلية او الخارجية ... الخ . ولكن هذه الأخيرة لا يمكن أن تعتبر بنيات ما دمنا لم نحدد الكيفيات السببية والعملية للتحويلات المعنية في داخل النظام . كما أن نظرية « البروز » emergence التي دافع عنها لويدي مورغان Lloyd Morgan وآخرون غيره تقتصر على ملاحظة وجود

المجلات في مختلف المستويات. ولكن القول بأنها « تبرز » في وقت معين لا يرتكز إلا على الإشارة بأن هنالك مسائل . ومن ناحية أخرى ، إذا كانت الحيوية قد شددت على الجسم الحي كموضوع أو كصنعة للموضوع يعكس أولية الموضوع ، فقد اكتفت دائماً بتصور الموضوع مستوحى من استنباطات المعنى المشترك أو من العلم الماورائي للأشكال الأرسطوطالية كما عند دريش Driesch . من المهم هنا الإشارة إلى التجربة الأولى للبنية التفسيرية في البيولوجيا وهي عضوانية برتلانفي L. Von Bertalanffy المستوحاة من أعمال السيكلوجيا التجريبية في ميدان الصيقات أو البنيات المدركة والحركة . وإذا كانت أعمال هذا المنظر في علم البيولوجيا ذي قيمة لا تناقش نظراً لجهوده المبذول في تأسيس « نظرية عامة للأنظمة » ، فإن التحسينات الداخلية في الفيزيولوجيا المقارنة وفي علم الأجنة embryologie السببية وفي علم الوراثة génétique ، وفي نظرية التطور وفي علم الأخلاق ... إلخ كانت ذات دلالة بالغة فيما يتعلق بالتوجيه البنيوي الحالي للبيولوجيا .

استعملت الفيزيولوجيا منذ زمن بعيد بتطويرها أعمال بلود برنارد مفهوماً رئيسياً بالنسبة للبنية هو مفهوم الـ homéostatic الذي يعود اكتشافه إلى كانتون وبرجوعها إلى توازن دائم للوسط الداخلي وبالتالي إلى ضبطه . هذا التصور يؤدي بنا إلى إبراز فكرة الضبط الذاتي بالنسبة للجسم الحي بكامله . والحالة أن هذا الضبط الذاتي يتعدى بنقاط ثلاث الأشكال الفيزيائية المعروفة للتوازن ، بشكل خاص التعديلات الجزئية عند « انتقالات التوازن » ، حسب مبدأ لوشاتولييه . نلاحظ أولاً أن ضبط البنية العائد بأدىء ذي بدء إلى الانتظام الذاتي العام يؤمن نفسه فيما بعد بواسطة أعضاء مميزة عن هذا الانتظام . وهكذا تتيج مختلف عوامل تجميد الدم كما يرى ماركون جان ، تتيج الفرصة لانتظام عفوي قديم نسالياً phylogénétique (على الأرجح منذ الكولتريين) ثم تخضع لمراقبة عضو انتظام أول مع الجهاز الهرموني ، وأخيراً تخضع لعضو ثان مع الجهاز العصبي . ثانياً وبالتالي ، تحتوي البنية الحية على عمل مرتبط بعمل

الجسم الحي بمجمله بشكل أنها تشغل وظيفة بالمعنى البيولوجي المحدد بالدور الذي تلعبه البنية التحتية بالنسبة للبنية الكاملة . وأنه لمن الصعب رفض هذه الفكرة في ميدان الجيوسا ولكتنا نجد في الميادين المعرفية مؤلفين يطرحون البنيوية كظرفية مضادة لأية نظرية تفعية fonctionnalisme وهذا بشكل رأياً تجب مناقشته . ثالثاً تعطي البنيات الموضوية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الميزة التفعية لهذه البنيات مظهر أجمه البنيات الفيزيائية (فقط بالنسبة للفيزيائي) ، هذا المظهر يقضي بالرجوع إلى المعاني هذه المعاني تبدو واضحة بالنسبة للموضوع الحي في التصرف حيث تضع البنيات الفطرية بشكل خاص في عين الاعتبار جميع أنواع « الإشارات الدالة » الوراثية (IRM. innate releasing mechanisms) ولكن هذه البنيات تبقى محتواة في كل عمل منذ التفريق البيولوجي المحض بين للعادي والشاذ .

مثلاً على ذلك، في حالة خطر الاختناق عند الولادة يتيح تجمد الدم الفرصه إلى انتظام عصبي فوري ، ولكن الـ homeostasic لا تحتوي فقط على معنى فيزيولوجي . نحن أهم مكتسبات البنيوية البيولوجية المعاصرة هي أنها تخلت عن صورة الـ génome المعنوية كتجميع مورثات gènes منعزلة وتخدم النظام حيث لا تلعب المورثات دورها كعازف انفرادي وإنما كأوركسترا كاملة على حد تعبير Dobzhansky ؛ مع وجود مورثات ضابطة بشكل خاص وحيث تنتظم العملية بواسطة عدة مورثات من أجل واحدة، أو تنتظم العملية بواسطة مورثة واحدة من أجل عدة ميزات... الخ ولا تعود عندئذ الوحدة الوراثية تشكل génome منعزلاً بل تشكل «السكان» وذلك ليس مع مجرد خليط بسيط، بل مع اندماج سلالات بطريقة تظهر الـ pool homeostasic وراثية الشيء الذي يعني توازناً يريد احتمال البقاء ومبرهنناً بالطريقة التي قدمها دو بهانسكي وسيلسكي، تخلق عدة سلالات معروفة في « قفص سكاني » وندرس مستوياتها بعد عدة أجيال . والأفضل من ذلك لا يعود سياق التغير الاسامي تغياراً إحيائياً mutation وإنما «إعادة تنظيم» وراثي، الشيء الذي يشكل الأداة الرئيسية لتكون البنيات

الوراثية الجديدة . وفي ميدان الأصل الجنيني embryogenèse شهدت الميول للبنىوية، التي تشمل منذ اكتشاف منسقات الانتظامات البليانية والتجديدات، على أعمال وادنفنتون Waddington التي أدخلت مفهوم الـ homéorhesis أو التوازن الحركي للنمو المتبادل للانحرافات الممكنة حوالـ créodes أي الطرق الضرورية التي يتبعها هذا النحو . والآن من ذلك أن وادنفنتون يبين التفاعل بين الوسط والتأليف الوراثي في أثناء النمو (تكون الـ phénotype) ، وركز على أن الـ phénotype يشكل جواباً لـ génome بالنسبة لتطلبات الوسط والتسويق يتعلق بهذه الأجوبة وليس بالـ génotype نفسها : من هنا إمكانية « التمثيل الوراثي » بواسطة هذه التنسيقات أو تثبيطات الميزات المكتسبة . وبشكل عام يرى وادنفنتون، في العلاقات بين الوسط والجسم الحي، دارة إحيائية آلية ينتقي بواسطتها الجسم الحي وسطه، بينما يكيفه هذا الأخير ويتمدى مفهوم البنية المنضبطة ذاتياً، للفرد والسكان أنفسهم، لكي يشمل المركب [التمثيل بالسكان milieux phénotype Pool génétique] ويكون هذا التفسير أساسياً فيما يتعلق بمعنى التطور .

كما أنه يوجد مؤلفين يعتقدون أن التطور الجنيني كله سابق لتكون رافضين بذلك مفهوم الأصل المتعاقب epigénèse (التي يعيد إليها وادنفنتون بالمعكس معناها الكامل ، قامت في هذه السنوات الأخيرة نظريات تدعم الفكرة التي تقول بأن التطور الكامل كان سابق التعديد بواسطة تركيبات ترتكز على مركبات الحوامض النووية ADN . نكون بذلك قد حصلنا على السجاح الكامل للبنىوية السابقة التكوين التطور نفسه . وفي تصحيح دور الوسط الذي يثير الآن مسائل تجيب عليها التغيرات الداخلية النمو endogene نعيد إلى التطور معناه الديالكتيكي بدل أن نرى في ذلك قضاءً أبدياً تصبح أخطاؤه وثغراته غير قابلة للتفسير .

هذه الإنجازات البيولوجيا المعاصرة هي ثمينة بالنسبة للبنىوية بمقدار ما

تمنحه القواعد اللازمة للبنية النفسية الوراثية عندما تشمل النظرية المقارنة للتصرف أو الأتولوجيا . وبالفعل فقد أكدت الأتولوجيا من جهة وجود بنية مركبة للفرائز إلى درجة بقنا معها نتكلم اليوم عن منطق للفرائز وتحلل منها مختلف المستويات التسلسلية وبذلك تشكل الفرزة منطقاً للأعضاء أو أدوات عضوية قبل أن تتشكل أفعال مبرجة وراثياً وأدوات مصنوعة . ومن جهة أخرى، وهذا لا يقل أهمية، قيل الأتولوجيا الحالية إلى قبان ان كل تعليم وكل حفظ لا يقوم إلا بارتكازه على بنيات مسبقة ، ويمكن أن يكون ذلك بنيات الحوامض النووية ARN أو ADN للمواد الوراثية . وهكذا فان الاحتكاك بالتجربة والتغيرات الأكثر عشوائية والمكتسبة تبعاً للوسط الذي بحث داخله التجريبية عن نموذج لتكون المعلومات، ان هذا الاحتكاك لم يرسح إلا بواسطة تمثيلات لبنيات لم تكن كلها قطرية ولا ثابتة، ولكنها راسخة وأكثر ثبوتاً من التلمعات التي تبدأ منها المعرفة التجريبية .

وبكلمة فإن « المجلات » و « الانتظامات الذاتية » البيولوجية مع كونها مادية وذات محتوى فيزياء - كيميائي ، فانها تفهم العلاقة غير المنفصلة بين البنيات والموضوع ، لأن الجسم الحي هو مصدر هذا الموضوع . إذا كان الإنسان لا يشكل إلا مزقاً « في ترتيب الأشياء » على حد تعبير ميشال فوكو وبشكل منذ أقل من قرنين مجرد ثنية في علنا ، يبدو مع ذلك مفيداً أن نتذكر أن هذا المزق وهذه الثنية بنجان عن تصدع واسع لا بأسس بتنظيمه ، ويتألف من الحياة بكاملها

١١ - بدايات الهيويوية في علم النفس ونظرية « الصيغة » .
 La Théorie de la Gestalt يمكن الاعتبار بأن مفهوم البنية في علم النفس قد ظهر منذ أوائل هذا القرن ، عندما تعرض « علم نفس الفكر » من مدرسة وريزبرغ للترابطية (في نفس الوقت الذي كان يعارض لها « بينه » في فرنسا « وكلا برند » في سويسرا) التي كانت تدعي تفسير كل شيء بترابطات ميكانيكية بين عناصر مُسبقة (إحساسات وصور) . وما يدعو للدهشة ، بالإضافة إلى ذلك ، إكتشاف أن « بوهلر » قد أبرز منذ تلك الحقبة ، بأساليب بحث اختبارية ، الميزتين النسبيتين للبنية التي استعملتها الفينومينولوجيا phénoménologie باستمرار منذ ذلك الحين : القصد والمعنى (الذات يطابقان ، من جهة أخرى ، مفاهيم التحويلات مع التنظيم الذاتي ، وهي التي أدرجناها في تحديدنا الموضوعي في الفقرة الأولى) . وبالفعل فقد برهن بوهلر ليس فقط بأن الحكم هو عمل موحد (الشيء الذي كان يتفق عليه دفعة واحدة جميع المناقضين للترابطية) بل ان للفكر درجات من التعقيد المتزايد أطلق عليها لفظة bewusstheit (أي فكر مستقل عن الصورة يعطي المعاني) ولفظة Regelbewusstsein (أي وعي للقاعدة التي تتعلق ببنىات العلاقات . الخ .) ولفظة Intention أو عمل تركيبي مُوجّه يقصد الشكل الشامل أو النظام من التفكير إلى الفعل .

غير انه ، بدلاً من أن يتوجه « علم نفس الفكر » في الاتجاه الوظيفي للجذور

الذسية الوراثية والبيولوجية ، فإنه لم يكتشف بالنهاية سوى بنيات منطقية ، ذلك أنه دفع بتحليله في الميدان المجز الوحيد في الذكاء الراشد (ومن المعلوم فضلاً عن ذلك ، ان الرجل الراشد الذي يدرسه العالم النفسي يختاره دائماً من بين مساعديه أو تلاميذه) ، في حين أن تحليلاً للنشأة يؤدي حتماً إلى قلب همنه الألفاظ .

أما الشكل المذهل للبنى النفسية فقد قدمته بلا شك « نظرية الصيغة » التي ولدت سنة ١٩١٢ من أعمال و . كوهلر و م . ورتيمر المتقاربة ، وامتدادها إلى علم النفس الاجتماعي ، الذي يعود فضل إلى ك . ليفن وإلى تلاميذه^(١) .

تطورت نظرية الصيغة (أو الجشطالت) في جوال فيزيومينولوجيا ، ولكنها لم تأخذ منها سوى مفهوم تفاعلية أساسية بين الذات والموضوع^(٢) وصحت الالتزام بالانجساه الطبيعي Naturaliste الذي يعود إلى تكوين كوهلر كفيزيائي وإلى الدور الذي لعبته ، عنده وعند غيره ، نماذج « المجالات » les modèles de « champs » .

وبالإضافة إلى ذلك أثرت هذه النماذج على النظرية تأثيراً يمكن الحكم عليه لليوم ، من نواح ، بأنه مشؤوم ، وذلك رغم كونه كان مثيراً في مبدئه .

وبالفعل ، يشكل مجال القوى ، كجبال كهراطيسي ، جملة منظمة تماماً ، أي حيث يأخذ تركيب القوى شكلاً معيناً حسب الوجاهات والشدائد intensités ، غير ان المقصود هنا تركيب يحصل تقريباً في الحال ، وإذا كان يمكن الكلام عن تحويلات ، فإنها شبه فورية . والحال ، أن سرعة التيارات الكهربائية أبطأ بكثير في ميدان الجهاز العصبي وفي « المجالات » حيث تتمدد نقط الاشتباك العصبي ، (٣ إلى ٩ دورات في الثانية للموجات من ٢ إلى ٥) . وإذا كان سريعاً تنظم

(١) بشأن نظرية ليفن Levin ، راجع الفصل السادس .

(٢) زده على ذلك أنه مفهوم بروليفي ، وجيلكتيكي بشكل عام .

الإدراك الحسي انطلاقاً من الاختصاصات afférences فليس ذلك سبباً لتعميم هذا المثل على جميع الجشطلطات. والحال ان الاشتغال بتأثير المجال أدى بكوهلر الى جملة لا يرى العمل الذكي الصحيح إلا في « الفهم الفوري » وكان التحسسات السابقة المقصد النهائي ليست قبلاً تابعة عن ذكاء . والمسؤول ، بدون شك ، عن الالهمية الضمنية التي خصها الصينيون للاعتبارات النفعية والنفسية الوراثة وبالنهاية لنشاطات الذات هو ، بالاختصاص ، نموذج المجال. هذا لا يمنع الجشطلطات من ان تمثل ، وبالضبط لأنها مفهومة على هذا الشكل ، نوعاً من البنيات يحلو لعدد معين من البنيويين يقوم مثاهم ، الضمني أو المعارف به ، على البحث عن بنيات يمكن لهم اعتبارها خالصة purees لأنهم يودونها لو تكون بدون تاريخ وبالأحرى بدون نشأة ، بدون وظائف وبدون علاقات مع الذات. ومن السهل بناء جواهر كهذه في الميدان الفلسفي ، حيث الاختراع محرر من أي ضغط ، ولكنه يصعب إيجادها في ميدان الواقع الذي يمكن التحقق منه. والجشطلطات تقدم لنا مثل هذه الفرضية : ينبغي إذا تمحص قيمتها باهتمام .

الفكرة الرئيسة للبنوية الصغية Gestaltiste هي فكرة الجملة. كان امرنفلز قد برهن سنة ١٨٩٠ على وجود إدراكات تقوم على النوعيات الجماعية أو الشكلية (Gestaltqualitat) للأشياء المركبة كنغم أو سبب : وبالفعل ، إذا نُقِلَ النغم من لحن إلى آخر فقد تتغير جميع الأصوات الخاصة لكن النغم يبقى رغم ذلك معروفًا . غير أن امرنفلز كان يرى في هذه النوعيات الجماعية تطابقاً مع تلك التي للأحاسيس .

أما الابتكار الذي جاءت به نظرية الصيغة فيمكن في أنها تنكر وجود الاحساسات على أنها عناصر سيكولوجية مسبقة ، ولا تحتملها سوى دور عناصر « مَبْنِيَّة » وليس « يَأْتِيَّة » . إن المعطى ، منذ البداية ، هو جملة بما هي جملة ، أما المراد فهو تفسيرها : وهنا تدخل فرضية المجال ، التي حَسَبُها لا تصيب الاختصاصات الدماغ منزهة ، بل تصل ، بواسطة المجال الكهربائي

للجهاز العصبي ، إلى « اشكال » في التنظيم شبه فورية . أما ما يبقى فهو الكشف عن قوانين هذا التنظيم .

والحال ، كما في المجال تخضع للعناصر دوماً للكل ، أي تعديل محلي يسبب تبديلاً في المجموع ، فإن القانون الأول للعمليات المدركة ليس فقط انه يوجد خصائص للكل بما هو كل ، بل أيضاً ان القيمة الكلية للكل لا تساوي قيمة مجموع الأجزاء . وبكلمة أخرى ، ان هذا القانون الأول هو قانون التركيب غير الجمعي للكل ، وكلام كوهلر حول هذه النقطة واضح جداً إذ انه يرفض ، في كتابه حول Die physischen Gestalten إعطاء تركيب القوى الميكانيكية ميزة الجشطالت وذلك بسبب تركيبها الجمعي . ويسهل في ميدان الادراكات ، التحقق من هذا التركيب غير الجمعي : يبدو الفراغ الجزء أكبر من الفراغ غير المجزء ؛ ويبدو الجسم المركب (أ) + (ب) (قضيب من رصاص تملوه علبه فارغة ، بحيث يشكل كليها شكلاً بسيطاً ذات لون مُتَشَبِّه) في بعض خدع الوزن ، أقل ثقلاً من القضيب (أ) بمفرده (هذا بما يخص العلاقات مع الأحجام الخ ...) .

والقانون الأسامي الثاني هو قانون نزعة الجملات المدركة الى الأخذ « بالشكل الأفضل » الممكن (قانون رسوخ بنية « الأشكال الحسنة » *bonnes formes*) ، وتتميز هذه الأشكال الراسخة البلية بسهولة وانتظامها وتوازنها واستمرارها وتقارب عناصرها الخ . وهي ، في فرضية المجال ، من نتائج المبادئ الفيزيائية للتوازن ولأقل حركة (*d'extremum*) كما في حالة جسطلتات فقائيع الصابون : الحجم الأكبر مقابل المساحة الأصغر) الخ ... كما توجد قوانين أخرى مهمة تُحَقِّقُ منها كثيراً (قانون الصورة التي تبرز دائماً عن الخلفية ، قانون الحدود التي تخص الصورة لا الخلفية ، الخ .) غير ان القانونين السابقين يكفيان للمضي في بحثنا .

ويجدر أولاً التشديد على أهمية مفهوم الموازنة الذي يسمح بتفسير رسوخ بنية

الأشكال الحسنة وبلاستثناء عن قطرئها: بما ان قوانين التوازن جبرية، فيكفي فعلا عرض عمومية هذه الساقيات دون الحاجة لاسنادها الى أي وراثة . ومن جهة أخرى ، تولف هذه الموازنة ، كمياف فيزيائي وفيزيولوجي [فسلجي ، وظائفي] معا ، نظاماً للتحويلات ولو انها جد سريعة ، وفي نفس الوقت نظاماً مستقلا في ضبطها . هاتين الخاصتين ، بالإضافة الى القوانين العامة للجماليات ، تجعلان (الجشطالت) تدخل في تحديد البنات المقترح في الفقرة الأولى .

يمكن التساؤل ، بالمقابل ، وحتى في ميدان الادراكات فحسب ، عما اذا كانت فرضية المجال ، مع نتائجها المتنوعة المناقضة للنغمية ، تكفي لتحليل الظواهر . وبرهن بيارون، بما يخص المجال الدماغى، انه اذا قدّم لعين منفردة، كلا من منبّهين خلال تجربة اعتيادية لحركة ظاهريّة، فان هذه الحركة لا تحصل بسبب انعدام التيار المباشر الذي تفترضه النظرية بين نصفي كرة الدماغ . يمكن ، من المنظور النفسى، اخضاع الادراكات لجميع أنواع التمهيد^(١) مما يرافق قليلا التفسير بالمجال الفيزيائي . وقد برهن برونشفيك على وجود ما سمّاه « بالجشطالت التجريبية » ، في مقابل « الجشطالت الهندسية : فشلا ، اذا عرضنا بنظرة سريعة (برأسطة مبصار) ، شكلا وسطيا ما بين يد وصورة ذات لخص أصابع قاتلية الى حد كبير ، فان نصف الراشدين فقط يصححون الشكل من وجهة الصورة (قارن الشكل الحسن الهندسي) بينما يصححه النصف الثاني من وجهة اليد (الجشطالت التجريبية) : والحال انه اذا تغيرت الادراكات تحت تأثير الاختبار ، وكما يقول برونشفيك ، تحت تأثير احتمالات الحوادث (التواترات اللسبية للتأذج الحقيقية) ، فهذا يعني ان تركيبها يخضع لقوانين وظيفية لا فيزيائية فقط (قوانين المجال) ، وقد اضطر «ولاش» ، مساعد كوهلر الرئيسى ، ان يتسحق بنفسه من دور الذاكرة في التراكييب المدركة .

(١) التمهيد : طريقة تلج إقامة علائق بين عدد من المنبهات والاستجابات في الكائنات الحية يتأنى عنها اكسليا مهاران خاصة للتكيف مع بيئها . - للترجم -

من جهة أخرى ، أظهرنا نحن من جانبنا ومع مجموعة من معاونينا^(١) ان الإدراكات تتطور مع السن تطوراً ملحوظاً . وانه بالإضافة الى مفاعيل المجال (على ان نفهم اللفظة هنا بمعنى مجال تركيز النظر) ، توجد نشاطات مدركة ، او مبروطة بعلاقات عبر استكشافات شبه قصدية ومقارنات عملية الخ ... ، تعدل من الجشطالت في مجرى التطور بشكل ملحوس : إذا قمنا بدراسة استكشافات الصور ، بشكل خاص ، من خلال تسجيل الحركات البصرية ، نلاحظ ان هذه الأخيرة في تنسيق وتحكم يتحسنان مع السن . أما بالنسبة لمفاعيل المجال ، فان تفاعليتها شبه الفورية تبدو عائدة لإوالية احتمالية من « الالتقاء » بين أقسام العضو المسجل وأقسام للصورة المدركة ، وخاصة من « مزاولات » او تطابقات بين هذه الالتقاءات . من هذه الترسمة الاحتمالية يمكن استنباط قانون ينصف بين شتى أنواع الجِدَع البصرية - الهندسية المستوية المعروفة حالياً .

بكلمة ، ليست الذات ، حتى في ميدان الإدراكات ، مجرد مسرح تلعّب على عتباته مسرحيات مستقلة عنه ومضبوطة مسبقاً بقوانين موازنة فيزيائية او توماتية : فهي الممثلة ، وغالباً أيضاً مؤلفة تراكيها ، تحكمها بالتتابع مع تلاحقها بواسطة موازنة عملية بمصنوعة من التعويضات القابلة للاضطرابات الخارجية وإذا لضبط ذاتي متواصل .

وان ما يصلح في ميدان الإدراك ، يفرض نفسه بالأحرى في ميادين القوة الحركية والذكاء ، التي كان للصيغيون يريدون إخضاعها لقوانين تركيب الجشطالت بشكل عام ولا سيما المدركة منها . يمرض كوهلر ، في كتاب حول الذكاء عند القردة المتفوقة ، وهو كتاب واقع من ناحية الوقائع التي وصفها ، يمرض لفعل الذكاء في إعادة التنظيم الفجائية للجال المدرك في اتجاه أفضل الأشكال . كما

(١) J. Piaget. « Les mécanismes perceptifs » Presses Universitaires de France.

حاول «ورتيمر» من جهته قصر لعبة الجدالات الشكلية او للبراهين الرياضية على بِنْيَتَيْنِ ثانية تخضع لقوانين الجشطت . فتمترض هذه الشروح صغويتان كبيرتان بسبب اتساع فرضيات المجال . تكمن الأولى في أن البنيات المنطقية الرياضية ، رغم كونها تتطوي بدون أدنى شك على قوانين جملات (راجع الفقرات من ٥ الى ٧) ، ليست الجشطتات إذ أن تركيبها جمعي قطعاً ($2 + 2$ يساوي تماماً ٤ رغم أن « أو لأن هذا الجمع يُشرك قوانين بنية الفريق الكاملة) . أما الثانية فتكمن في كون الذات الحسية او الذكية نشيطة ، فهي تبني بنياتها بنفسها ، بطرق تجريداتها للماكسة التي ليس لها أية علاقة بالصورة المدركة إلا في حالات جد استثنائية . لكن المشكلة هنا تبدو رئيسية بالنسبة للنسبة للنظرية البنوية فيتنبغي إذاً تفحصها عن كثب .

١٢ - البنيات ونشأة الذكاء . يمكن اسناد جميع أنواع الانطلاقات الى البنيات . فاما ان تكون قد قدمت كما هي على غرار الجواهر الأبدية ، أو انبثقت ، دون معرفة السبب ، في مجرى هذا التاريخ ذو النزوات ، الذي يسميه ميشال فوكو Michel Foucault بـ «الأثرية» «Archéologie» ، وإما ان تكون قد استخرجت من العالم الفيزيائي حسب طريقة الجشطت ، أو انها تتعلق بالذات بطريقة أو بأخرى . لكن هذه الطرق ليست متعذرة الاحصاء ولا يمكن لها إلا ان تتوجه ، نحو إما فطرية يُدعى كثرُ سبق تكوينها بالتحديد المسبق (إلا في حال إرجاع هذه المصادر الوراثة للبيولوجيا مما يثير ضرورة مشكلة تكوينها) ، وإما انبثاق جائز (مما يبيد بنا الى علم الأثرية الذي تكلفنا عنه منذ قليل ، ولكن داخل الطيئة النسيجية او الانسانية) وإما بناء . في المجموع لا يوجد سوى ثلاثة حاول : إما سبق تكوين ، وإما خلق جائز ، وإما بناء (لا تشكل عملية استخراج البنيات من التجربة حلاً مميزاً لأنه إما ان لا تكون التجربة مركبة إلا بتنظيم يكتفيها مسبقاً ، وإما ان تكون قد تكونت بطريقة توصل مباشرة الى بنيات خارجية تألفت سابقاً في العالم الخارجي) .

بما ان الانبثاق الجائز يتناقض تقريباً مع فكرة البنية ، (سنعود ونتناول هذا الموضوع في الفقرة ٢١) ، كما يتناقض مع طبيعة البنيات المنطقية الرياضية ، فان المشكلة الحقيقية تكمن في التحديد المسبق أو البناء . ويبدو ، لأول وهلة ، ان سبق تكوين أي بنية تولف جملة متعلقة ومستقلة ، هو فارقاً نفسه . ومن هنا التجدد الدائم للتزعجات الأفلاطونية في الرياضيات وفي المنطق ، ومن هنا أيضاً نجاح نوع من البليوية الجامدة عند المؤلفين المأخوذين بالمنطقات المطلقة أو بالمواقف المستقلة عن التاريخ وعن علم النفس . ولكن ، بما ان البنيات ، من جهة أخرى هي أنظمة تحويلات تتوالد الواحدة من الأخرى عبر سلاسل أصل (Généalogies) على الأقل مجردة ، وارت البنيات الأكثر صفة هي ذات طبيعة عملية ، فان مفهوم التحويلات يشير الى مفهوم التكوين ومفهوم للضبط الذاتي يستدعي البناء الذاتي .

تلك هي المشكلة الرئيسية التي تلقاها الأبحاث حول تكوين الذكاء . انها تلقاها بفرض الأمور نفسها إذ ان المقصود هو تفسير كيفية استيعاب الذات التي في طور النمو ، للبنيات المنطقية الرياضية . فلما ان تكتشفها متجزئة لكنه من المعروف انها لن تلاحظها كما تدرك الألوان أو هبوط الأجسام ، وأنت يشها التربوي (العائلي أو المدرسي) لا يحدي إلا بقدر ما يملك الطفل حداً أدنى من أدوات الاستيعاب (Assimilation) وهي نوع من أنواع (سفرى في الفقرة ١٧ كيف ان هذا الأمر يطابق أيضاً التمثلات القوية) . وإما على العكس ، ان نعلم بأنها (أي الذات) تبنيها ، ولكنها ليست حرة بأن ترتبها كما يحلو لها كما ترتب لعبة أو رسماً . والمشكلة الخاصة لهذا البناء هي في توضيح كيفية وسبب توصيله الى نتائج حتمية ، « كما لو » كانت دائماً محددة سابقاً .

ولكن ، تظهر الملاحظات والتجارب بالطريقة الأكثر وضوحاً بأن البنيات المنطقية تبني حتى انها لتأخذ في تكوينها إثني عشرة سنة لا بأسرها . لكن هذا البناء لا يخضع لقوانين أي تهيير بل لقوانين خاصة به : بفضل اللعبة

المزدوجة من التجريدات العاكسة (راجع الفقرة هـ) التي 'تزوّد' بمواد البناء تبعاً للحاجات ، ومن الموازنة ، بمعنى الانتظام للذاتي ، التي تقدم للتنظيم التماكسي الداخلي للبنى ، تؤدي هذه الأخيرة ، وعبر بنائها نفسه ، الى الحتمية التي كانت تعتبر القبلية (apriorisme) دوماً أن وضعها في الانطلاقات او بين الشروط المسبقة أمرٌ ضروري ، ولكن في الواقع التي لا 'يحتاج' إليها إلا في النهاية .

وبالطبع ، إن البنيات الانسانية لا تصدر عن لا شيء ، وإذا كانت كل بنية وليدة نشأة ما فيجب عندئذ الاقرار بمزم ، وبالنظر الى الوقائع ، بأن النشأة تشكل دائماً المزم من بنية بسيطة الى بنية أكثر تعقيداً وذلك في سياق تراجع لانهائية (وذلك نظراً لما هو عليه العلم في الوضع الحالي) . هناك إذاً معطيات انطلاق يجب نسبتها الى بناء البنيات المنطقية ، ولكنها ليست معطيات أولية ، إذا أنها تحدد فقط بداية تحليلنا وهذا لعدم إمكانيات الرجوع الى أبعد من ذلك . كما انها ليست حق معطيات تلك ما سيكون في نفس الوقت مأخوذاً عنها ومرتكزاً عليها في تتابع البناء .

وسنشير الى معطيات الانطلاق هذه باللفظة الشاملة : « التنسيق العام للافعال » . وتقتصد بذلك الروابط المشتركة لجميع التنسيقات الحسية دوراً الدخول في تفصيل تحليل المستويات مبتدئين بالحركات التلقائية للجسم وبالارتكاسات (Reflexes) التي تشكل فيه بدون شك تفريقات راسخة ، أو أيضاً بمقدني الارتكاسات والبرعمة الفطرية كترسعة المولود وحتى نصل عبر العادات المكتسبة الى عتبة الذكاء الحسي أو السلوك الأدوية . والحال ، نجد في جميع هذه المسالك ذات الجذور الفطرية والتفريقات المكتسبة ، بعض العوامل الوظيفية وبعض العناصر البنائية المشتركة . والعوامل الوظيفية هي المتمثل assimilation أي السياق الذي حسبها يماود السلوك عملياً ويدمج معه أهدافاً Objects جديدة (نحو : معنى الاهتمام مدخلا هذه العملية في سياق تصور بنية الرضعة) وتكيف تصورات النمثل مع تنوع الأهداف . والعناصر التركيبية

هي أساساً علاقات تسلسل (تسلسل الحركات خلال ارتكاس ، تسلسلها خلال عادة ما ، تسلسلها في الصلات بين الأساليب والمرامي) ، والتداخلات embôitements (خضوع تصور سهل إلى آخر أكثر تعقيداً) وللتطابقات correspondances (في التمثلات الاعترافية assimilations recognitives الخ .) .

والحال ، تسمح هذه الأشكال الأولية للتنسيق ، عبّر لعبة التمثلات السهلة والمتقابلة reciproques ، ومنذ المستوى الحسي الذي يسبق الكلام ، تسمح بتأسيس بعض البنيات المتوازنة ، أي التي تؤمن إنتظامات؛ درجة معينة من المنكوسية . والشكلان الجديران أكثر بالملاحظة هما أولاً الفريق العملي للإنتقالات (تنسيق الإنتقالات ، الف والدوران: راجع الفقرة هـ) مع الثابت المرتبط به ، هذا يعني : بقاء الأشياء التي تخرج من المجال المدرك والتي يمكن الاهتمام إليها بإعادة تشكيل انتقالاتها ، وثانياً ذلك الشكل للسببية التي جعلت موضوعية وحيزية ، والتي تتدخل في السلوكات الأدائية (جذب الأشياء للنفس باستعمال قلعتها أو عصا ، الخ .) . يمكن عندئذ الكلام عن ذكاء على هذا المستوى ، لكن عن ذكاء حسي ، خالٍ من التصورات ومرتبطة أساساً بالفعل وتنسيقاته .

ولكن ، ما أن تسمح الوظيفة الرمزية^(١) la fonction sémiotique (اللغة ، اللعبة الرمزية ، الصور ، الخ .) بالتعبير عن إدراكات لم يتم إدراكها حالياً ، أي التصور أو الفكر ، حتى نشهد أولى التجريدات العاكسة التي تقترض جذب بعض الارتباطات من تصورات البنية الحسية ، إرتباطات تتمكس (بالمعنى الفيزيائي) على هذا الصعيد الجديد الذي هو صعيد الفكر ، وتكون على شكل سلوكات مميزة وبنيات تصورية . وتُستخلص مثلاً العلاقات

(١) أي الوظيفة التي تقوم على صنع الرموز وتركيبها . المترجم

للتسلسلية التي كانت تبقى مدرجة ، على الصعيد الحسي ، في أية بنية تصويرية مُبَيَّنَة ، فتفسح المجال أمام مسلك خاص ، مسلك الترتيب والتسلسل ، كما تؤخذ التداخلات من القرائن حيث تبقى خمنية لتفسح المجال أمام سلوك تصنيفات (ترتيبات مجازية الخ ..) وتصبح التطابقات مبكراً منهجية (« تطبيقات » واحد إلى كية ، تطابقات عنصر بعنصر بين نسخة ونموذجها ، الخ ..) . ولا شك ان في هذه السلوك بداية منطق ولكنه ذات حدودين أساسيين : لا يوجد حتى الآن أية تماكسية ، إذاً لا عمليات (إذا حددها العمليات بإمكانية تماكسها) وبالتالي لا حفاظات كية (لا يحتفظ الكل الجزأ بنفس المجموع ، الخ ..) . نحن إذاً أمام نصف منطق (بمعناه الجرد إذ انه ينقص النصف الآخر أي التماكسات) ، غير انه يبين لعمله مفهومين أساسيين :

١ - هناك أولاً مفهوم الوظيفة او التطبيق للتسلسل (مزدوجات موجهة [couples orientés]) : مثلاً إذا سحبنا تدريجياً خيطاً مؤلفاً من قطعتين (أ) و (ب) بشكل زاوية قائمة ، فيفهم الطفل جيداً ان القطعة (ب) ترداد طولاً تبعاً لنقصان طول (أ) ولكن ليس بمقدوره الإقرار بأن الطول الكلي (أ) + (ب) يبقى ثابتاً ذلك انه لا يحكم على الأطوال إلا بطريقة ترتيبية (ترتيب نقاط الوصول : أطول = أبعد) وليس عبر تحديد المسافات .

٢ - هناك أيضاً علاقة التطابق (الخيط هو نفسه رغم التغير من طوله) .

وتكون هذه الوظائف والتطابقات ، مهما تكن محدودتها ، بنيات على شكل فئات جد ابتدائية (بالمعنى الذي رأيناه في الفقرة ٦) .

والمرحلة الثالثة هي مرحلة ولادة العمليات (٧ الى ١٠ سنوات) لكن بطريقة محسوسة ، إذ أنها تتمثل هذه المرة بالأشياء نفسها : - مسلسلات عملية

يتضمنها ترتيب في الإجماعين ، ومن هنا الانتقالية *la transitivité* المجهولة إلى الآن ، أو الملحوظة من غير ضرورة ، تضيف مع تحديد كمية المضمون ، لائحة ضربية ، بناء الرقم بتركيب من المسلسلة والتضمن ، والقياس بتركيب من التجزئة والترتيب ، تحديد المقاييس التي كانت حتى الآن ترتيبية ، والحفاظ على الكليات . أما البنية الشاملة التي تخص هذه العمليات المتنوعة ، فهي ما أطلقنا عليها اسم « التكتلات » وهي عبارة عن فرق ناقصة (لعدم وجود ترابط كامل) أو عن نصف شبكات *semi-réseaux* (لها حدود تحتية دون حدود فوقية أو العكس : راجع الفقرة ٦) وبالأخص التي تنتج تراكيبيها شيئاً فشيئاً دون دمج .

وعند القيام بتحليل البنيات ، يُكتشف بسهولة كيف أنها تصدر جميعها عن سابقاتها وذلك بحكم لمة مزدوجة من تجريدات عاكسة ترودها جميع العناصر ، ومن موازنة هي مصدر التماكسية العملية . وهنا نشهد خطوة خطوة ، تكوين بنيات صحيحة ، إذ أنها منطقية ، وفي نفس الوقت جديدة بالنسبة إلى البنيات التي سبقتها : وهكذا تتجهم التحويلات المؤلفة للبنية عن تحويلات تكوينية ولا تختلف عنها إلا بتطعيمها المتوازن .

لكن الأمر يتوقف عند هذا الحد إذ تؤدي مجموعة جديدة من التجريدات العاكسة إلى بناء عمليات جديدة عن سابقاتها ودون أن نضيف شيئاً جديداً ما عدا تنظيم ثان غير أنه ذات أهمية كبيرة : فمن جهة ، تصل الذات ، مُعَمَّمةً التصانيف إلى هذا التصنيف للتصنيفات (وهي عملية من المرتبة الثانية) الذي يشكل الدمج *la combinatoire* . ومن هنا إذاً « مجموع الأقسام » وشبكة بول *le réseau de Boole* . ومن جهة أخرى ، يؤدي التنسيق بين التماكسات التي تخص تماكسية « تكتلات » الفئات « (أ) - (أ) = صفر » ، والتقابليات التي تخص « تكتلات » العلاقات ، إلى فريق الرباعية : « ن ب أ » الذي سبق أن عرضناه في الفقرة ٧ .

وإذا استعدنا مشكلتنا التي انطلقنا منها ، نتأكد أن بين سبق التكوين المطلق للبنيات المنطقية واختراعها الاختباري أو الجائز ، يوجد مكان لبناء يصل في آن معاً إلى حتمية نهائية وإلى وضع لازمني بصفته تماكسي . أنه يصل إلى كل ذلك عبر ضبط لذاته تفرضه متطلبات متزايدة دوماً ، (وهي متطلبات لا بد لها إلا أن تتزايد في مجرى السياق هذا إذا كان الضبط يتوخى بالفعل توازناً متحركاً وثابتاً في نفس الوقت) . ويمكن بالطبع القول بأن الذات لا تفعل سوى الاتصاف ببنيات موجودة أزلياً بالقوة ، وبما أن العلوم المنطقية – الرياضية في علوم الإمكان أكثر منها علوم الواقع ، فإن بإمكانها الاكتفاء بهذه الافلاطونية ذات الاستعمال الداخلي. أما إذا مددنا المعرفة المتقطعة إلى علومية فيبقى أن نتساءل أين نحدد هذا الوجود بالقوة *cc virtuel* . فإسنادها إلى جواهر *essences* لا يشكل سوى قياس دائر. والبحث عنها في العالم الفيزيائي غير مقبول. وتحديد ما في الحياة المعضوية أمر على الأقل أخصب ولكن شرط أن نتذكر بأن الجبر العام لا يتعلق بتحركات البكتيريات أو الفيروسات *des bacteries ou des virus* . يبقى البناء نفسه ولا نعلم لماذا يُعتبر للتفكير ، بأن الطبيعة الأخيرة للواقع هي كونها في بناء دائم عوضاً عن افتراض كونها تراكم لبنيات جاهزة ، تفكيراً يدعو للسخرية .

– ١٣ – البنيات والوظائف . توجد عقول لا تحب الذات ، فإذا ميزنا هذه الأخيرة من خلال « تجاربها التي عاشتها » نعارف عندئذ بأننا من بين هؤلاء . وما زال ، وللأسف ، يوجد كثير من المؤلفين يُركّز علماء النفس بنظرم ومن تحديد اللحظة نفسها ، على الذات التي تفهم بأنها تجربة شخصية عاشتها . ونعارف نحن أننا لا نعلم عن هؤلاء شيئاً ، فإذا كان عند المحللين التفسيريين *psychanalystes* ضيق للتكباب على حالات شخصية يُعَمَّر فيها بصورة مستمرة على نفس النزاعات ونفس المقد ، فإن ذلك يعني أن المراد أيضاً هو الوصول إلى أليات مشتركة .

ومن البديهي في حال بناء البنيات المعرفية أن لا تلعب التجربة المعاشة إلا دوراً ضعيفاً إذ أن الأشخاص لا يعون هذه البنيات ، غير أننا نجدها في تصرفهم العملي وهو أمر مختلف تماماً . انهم لا يعونها بما هي بنيات شاملة Structures d'ensemble إلا حين بلوغ سن تكنتهم من التفكير في البنيات تفكيراً عفيفاً .

ومن البديهي أنه إذا رغب الاستعانة بسأفعال الذات لتحليل التراكيب السابقة ، فإنه يجب الاستعانة بذات معرفية Sujet épistémique هذا يعني الاستعانة بأليات مشتركة بين جميع الأشخاص إفرادياً من نفس المستوى وبكلمة أخرى بشخص «عادي» . شخص عادي لدرجة ان احدى الاساليب الأكثر فائدة لتحليل افعاله هي بناء نماذج من الذكاء الاصطناعي على شكل معادلات او اليات ، وتقديم نظرية إوالية آلية theorie cybernétique للوصول إلى الشروط الضرورية واللازمة ليس لبنيته في الجرد بل لتحقيقها الفعلي ولاشتغالها . تصبح البنيات من هذا المنظور غير قابلة لأن تُفصل عن اشتغالها وعن وظائفها بالمعنى البيولوجي للكلمة . وقد نكتشف باننا تعدينا ، في حال ادخال الضبط الذاتي او الانتظام الذاتي الى تحديد البنيات ، بمجموع الشروط الضرورية . غير ان الجميع يقر بان اللبنة قوانين و كيبية وهذا يعني إذا انها منضبطة . ولكن من او ما ؟ فإذا كان الجواب هو المنتظر ، فإن الامر عندئذ لا يتعدى الكائن الشكلي . وإذا كانت البنية « فعلية » ، هذا يعني وجود ضبط عملي ، فيجب إذا ، وبما ان هذا الضبط هو ضبط مستقل ، الكلام عن انتظامات ذاتية (وقد اعطت الفقرة ١٢ مثلاً على ذلك) . وهكذا نعود ونقع في مسألة ضرورة وجود الاشتغال ، فإذا اجبرتنا الوقائع على نسب البنيات الى ذات ما ، فيمكننا حينئذ تحديد هذه الذات كتركز اشتغال .

لكن لم مثل هذا المركز ؟ إذا كانت البنيات موجودة وتحتوي كل منها على انتظام ذاتي ، أفلا يعود جعل الذات مركز اشتغال ، الى لعب مجرد دور

مسرح ، الامر الذي اخذناه على النظرية الصيفية ، وألا نكون قد عدنا الى مسألة البنيات المستقلة عن الذات التي يحلم بها عدد معين من البنيويين الحاليين ؟ فلو كانت البنيات تبقى على ما هي ، من البديهي عندئذ ان يصح الامر الذي نتساءل عنه . اما اذا أخذت تشكل روابط فيما بينها عن طريق الانسجام بين جواهر افراد منفصلة على نفسها ، فتعود الذات وتصبح العضو الرابط حقوقياً وذلك فقط بمشنيين ممكنين : فاما أن تعود الذات « بنية البنيات » للأنا الصورية *Le moi transcendental* الخاصة بالأولية (أو اللقبية) *l'apriorisme* ، أو بشكل اصلي « الأنا » التي تعلق بنظريات التآليف للسيكولوجي (راجع المؤلف الأول لبيارجان *l'automatisme psychologique* ، الذي أدت به ديناميته الى تعديده نحو معنى وظيفي ونفسي ورائي) ، وإما أن الذات لا تملك قدرة كهذه ولم تكن لديها بنيات قبل أن تبنيتها ، ويجب تمييزها ، بتواضع أكبر وواقعية أكثر ، بأنها لا تولد سوى مركزاً لاشتغال البنيات .

وحان وقت تذكرنا بأن الأعمال البنيوية للرياضيين قد أجابت في الواقع على هذا السؤال بشكل أذهشَ تعارُبه مع التحاليل النفسية الورائية : لا يوجد « بنية لجميع البنيات » في نفس معنى « مجموع لجميع المجموعات » الخ ... ولا يعود سبب ذلك فقط إلى التناقض المعروف بين المذهبين بل يعود إلى أعنف من ذلك بكثير ، إلى حدود التعميد (الحدود التي أسندناها في الفقرة ٨ إلى نسبية الأشكال والمضامين والتي نرى الآن بأنها تعود أيضاً إلى شروط التجريد العاكس وهو أمر يؤدي إلى نفس النتيجة) . وبكلام آخر ، ان التعميد نفسه للبنيات هو بناء يؤدي في المجرد إلى سلالة البنيات ، بينما في الملموس ، يولد توازنها التدريجي ، سلسلات ورائية نفسية (مثلاً : من الوظيفة إلى التكتلات ، ومن هذه إلى فرق من أربع تحويلات وإلى شكات) .

إن الوظيفة الأساسية (بالمعنى البيولوجي للكلمة) التي تؤدي إلى تكوين

البنيات هي ، في البناء المقترح في الفقرة ١٦ ، وظيفة « التمثل » ، التي أبدلناها بوظيفة « التجميع » الخاصة بالخطوط الذرفية للنظريات غير البنوية . والتمثل في الواقع هو مؤكّد التصورات وبالتالي البنيات .

يمثل الجهاز المضوي ، من المنظور البيولوجي ، في كل من تفاعله مع الأجسام أو مع مفاعيل البيئة ، يمثل الأجسام إلى بنياته الخاصة وذلك في نفس الوقت الذي يلائم نفسه للظروف ، ويفدو التمثل هكذا عامل دوام واستمرار لأشكال الجهاز المضوي . على صعيد السلوك ، ينزع فعل ما إلى تكرار نفسه (تمثل مكثّر) ، من هنا إذا التصور الذي يسمى إلى إدماج الأشياء المعروفة أو الجديدة التي يحتاجها عمل (تمثل اعترافي وتمثل معمم) . والتمثل إذا مصدر لملاحظات وتطابق مستمرة ، ولتطبيقات والنخ ... فهو يصل ، على صعيد التصورات العامة التي تشكل البنيات . غير ان التمثل مجرد ذاته ليس بنية : انه فقط مظهر وظيفي للتركييب البنوية ، يتدخل في كل حالة خاصة ولكنه يؤدي عاجلا أو آجلا إلى التمثلات المتبادلة *assimilations réciproques* أي إلى روابط ترداد متانة وتربط البنيات ببعضها .

لا يمكننا انهاء هاتين الفقرتين ١٢ و ١٣ دون تبيان واقع انت دعم بنوية كهذه لم يمنعه لها جميع المؤلفين ، وبالأخص في الولايات المتحدة . « برونر » ، مثلا ، لا يؤمن بالبنيات ولا حق بالمعاملات ، لأنها تبدوله ملطخة « بالمنطقية » ، ولا تعبر عن الوقائع النفسية عبر ذاتها . غير أنه يؤمن بأفعال وتدابير الخيلات (في المعنى الذي تفهمه نظرية القرارات *la théorie des décisions*) كيف إذا ، نسلكم بأن الأفعال لا يمكنها أن تستبطن نفسها نحو عمليات وبأن التدابير تبقى منعزلة عوضاً عن التنسيق فيما بينها لباورة نظام معين ؟ وهو يبحث من جهة أخرى عن مصدر التطورات المعرفية للذات *progress cognitifs du sujet* داخل النزاعات بين مختلف انماط الإدراك : اللغة ، والصورة ، وتصورات الفعل نفسه . لكن إذا كانت هذه النتائج لا تقدم سوى

نظرة غير كاملة ، وأحيانا مشوهة عن الحقيقة ، فكيف التوفيق فيما بينها دون العودة إما إلى نسخة عن الواقع ، وهي نسخة لا يمكن تحقيقها إذ أنها غير مشاركة (univoque) لنقل الواقع ، يجب معرفته عن غير طريق هذه للنسخة (وإما بالضبط إلى بنيات هي تتسق لجميع الأدوات الجاهزة ؟ لكن ، ألن تلعب اللغة نفسها بالنهاية هذا الدور المميز والبنائي . وألن تدعى بنوية « شومسكي » لتسبل المسائل التي ناقشناها في هذا الفصل ؟ هذا ما يجب علينا تفحصه .

١٤ - بنوية النظام اللغوي المترامن : إن اللغة مؤسسة جماعية ذات قواعد تفرض نفسها على الأفراد وتتناقل بطريقة تجبرية من جيل إلى آخر منذ أن كان الناس، تشتمل أشكالها الخاصة من أشكال سابقة تنحدر هي نفسها من أشكال أكثر بدائية وعلّم جراً دون توقف منذ أصل وحيد أو أصول أولية متعددة . من جهة أخرى ، تدل كل كلمة على مفهوم يشكل معناها ، ويذهب مناهضي العقلانية الأكثر عزمًا، مثل بلو مفيد، إلى حد الدفاع عن أن طبيعة هذه المفاهيم تقتصر كلياً على هذا المعنى للكلمات (يقول بلو مفيد بتحديد أكثر أن لا وجود لهذه المفاهيم : إنها لا شيء سوى معنى الكلمات ، مما يشكل بحذ ذاته طريقة لصنع وجوداً وتجديداً) . وأكثر من ذلك ، يتألف علم النحو la syntaxe وعلم الدلالة la sémantique من مجموعة قواعد ، على التفكير الفردي أن يخضع لها بنفسه عندما يريد أن يعبر عن شيء ما إما إلى الغير وإما داخلياً .

وبالاختصار، تشكل اللغة كونها مستقلة عن القرارات الفردية، وساملة تعاليد ألوف للسنة، وبالإضافة إلى كونها أداة ضرورية لتفكير أي واحد، تشكل فئة ذات امتياز في الحقائق اللسانية ، ومن هنا فالتفكير بأنها مصدر لبنيات مهمة من ناحية صمغها بشكل خاص (إنها تفوق عمر الماوم بكثير) ومن ناحية شموليتها وقدرتها ، هو امر طبيعي جداً. قبل أن تأتي إلى بنيات اللغة كما يراها اللغويون، فلنذكر بأن مدرسة علومية بكاملها، الوضعية المنطقية، تستبر أن المنطق والرياضيات يؤلفان علم نحو وعلم دلالة عموميين بحيث لا تصبح ، من هذا المنظور، البنيات

التي شرحناها في فصلنا الثاني سوى بنيات لغوية . بيتا اعتبرناهما نحن ، على العكس ، نتاجا لتركيب وتجريدات عاكسة انطلاقا من التنسيقات العامة للفعل : وقد توجد من هذا المنظور الثاني ، تنسيقات عامة كهذه ، تنطبق على كل شيء ، في التنسيقات بين أعمال الاتصال والتبادل وبالتالي توجد في اللغة . في هذه الحالة ، لا تصبح البنيات اللغوية أقل جدارة بالاهتمام ، لكن تختلف علاقتها مع البنيات المتعلقة بالمدلول *signifié* . ومهما يكن الحل ، ففي مسألة العلاقة بين البنيات اللغوية والبنيات المنطقية مشكلة أساسية للبنوية العامة .

ونشأت البنوية اللغوية حين بينَ فريدينان دي سوسور بأن سياق اللغة لا يقتصر على التطورية *diachronic* وبأن تاريخ الكلمة مثلا لا يعرض معناها الحالي . ويمكن السبب في وجود الـ « نظام » ، (لم يكن سوسور يستعمل لفظة بنية) بالإضافة إلى وجود التاريخ ، وفي أن نظاما كهذا يرتكز على قوانين توازن تؤثر على عناصره وترتبن في كل حقبة من التاريخ بالنظام اللغوي المتزامن *Synchronie* : بالعميل ، فالعلاقة الأساسية التي تدخل في نطاق اللغة هي عبارة عن تطابق بين الإشارة *Signe* والمعنى . ومن الطبيعي أن تؤلف مجموعة المعاني نظاما يرتكز على قاعدة من التمييزات والمقابلات إذ أن هذه المعاني تتعلق ببعضها ، كما تؤلف نظاما متزامنا إذ أن هذه العلاقات مترابطة .

وإذا كانت البنوية الأولية متزامنة أساسا (في مقابل النظرة التطورية لقواعد اللغة المعاصرة *la grammaire comparée* في القرن التاسع عشر ، وفي مقابل المنظور التحويلي لبنوية هاريس وشومسكي الحديثة) فإن ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب يجب وزنها بتأثيرا نظريا لعدد المؤلفين الذين ، رغم كونهم ليسوا لغويين ، قد أخذوا من التأثيرات السوسورية فكرة استقلالية البنيات عن التاريخ . يرتسم السبب الأول طابعا عاما جدآ ، وهو يتعلق بالاستقلالية النسبية لقوانين التوازن بالنسبة لقوانين التطور : في هذا الصدد ، تأثر سوسور في جزء من إلهامه ، بالاعتقاد الذي كان في عصره يشدد خاصة على الأولى (« بارتر » بعد

« ولراس »، وحيث يمكن في الواقع للأزمات بأن تؤدي إلى تعديل كامل للقيم المستقلة عن تاريخها (إن سمر التبغ سنة ١٩٦٨ مرون يتفاعل الأسواق الحالية وليس مرون بما كان عليه سنة ١٩٣٩ أو ١٩١٤) . كان يمكن من جهة أخرى الاطلاع بهذه الاعتبارات من البيولوجيا نفسها، إذ بإمكان العضو تغيير وظيفته أو يمكن للوظيفة أن تنمّس بواسطة أعضاء مختلفة .

أما فاني هذه الأسباب (وربما كان باستطاعته أن يكون الأول) ، فهو إرادة التخلص من العناصر القريبة على علم اللغة ، والاكتفاء بميزات النظام اللازمة .

أما السبب الثالث للميزة التزامنية للنبوية السومورية ، فتتعلق بوضع خاص بعلم اللغة شدد عليه سوسور في اندفاع منهجي تماماً: لا تحتوي الشارة الشفوية، لكونها اصطلاحية ، على علاقة جوهرية ، وبالتالي ثابتة ، مع معناها : انه المبدأ الذي يعتبر بأنه ليس في ميزات الدال اللفظية ما يشير إلى قيمة أو مضمون مدلوله ، وقد وضع « جاكوبسون » حديثاً موضع الشك ، هذا التأكيد على تحكم الشارة الذي كان « جاكوبسون » قد خفف منه . لكن « سوسور » كان قد أحاط سلفاً على هذه الاعتراضات حين ميّز بنفسه بين « التحكم للنسي » و « التحكم الكلي » . ومن المؤكد في الخطوط المريضة ، ان العلاقات التي تربط للكلمة بالمفهوم الذي تدل عليه ، أقلّ من العلاقات التي تربط هذا المفهوم بتحديدده أو مضمونه : بالرغم من وجود رمزية مصيصة ترافق أحياناً الشارة اللفظية ، (وذلك في المعنى السوسوري لعلاقة تسببية أو تشابهية بين الرامز symbolisant والرموز إليه symbolisé ، وبالرغم من أن الكلمة لا تبدو مطلقاً اختيارية بالنسبة للتكلم نفسه ، كما ذكر بذلك « بنفست » ، ويمتد الأطفال بأن الأشياء تملك أسماءها مادياً : وكان هذا الجبل كان يملك دائماً اسمه قبل أن يُسميه الناس وهم ينظرون إليه) ، بالرغم من ذلك ، فإن تعدد اللغات نفسه يؤكد بديهاً هذه الميزة الاصطلاحية للشارة اللفظية . زد على ذلك أن الشارة هي دوماً شارة اجتماعية (انها عبارة عن اصطلاحات صريحة أو ضمنية يرجع سببها

للاستعمال) . بينما يمكن للرمز أن يكون من أصل فردي ، كما هي الحال في اللعبة الرمزية أو في الحلم .

يبدو واضحاً ، إذا كان الأمر كذلك ، أن العلاقات بين النظام المتزامن والنظام التطوري ، لا يمكن إلا وأن تختلف في علم اللغة عمامي عليه في مجالات أخرى ، حيث لا تشكل البنية ، بنية طرق التعبير بل بنية المدلولات نفسها (في مقابل الدلائل) ، أي بنية وقائع تحتوي في ذاتها على قيمتها وقدرتها المعيارية *Leur pouvoir normatif* . أما خاصية المعيار ، فهي كونه لازماً أي كونه يحتفظ ويحفظ قيمته بفضل هذا اللزوم نفسه . أما توازنه الحالي فيرتن بتاريخه إذا أن هذه الميزة للتطور هي بالتجديد أن تَوَجَّه نحو هكذا توازن^(١) (راجع الفقرة ١٢) ، بينما يمكن لتاريخ كلمة ما أن يكون تسلسلاً لتغيرات في المعاني ، دون أي رابط بينها سوى ضرورة الجواب على حاجات تعبيرية للأنظمة المترامنة المتتالية ، حيث تشكل الكلمة جزءاً منها . وتثل البنات المعيارية والبنات الاصطلاحية بما يخص بعلاقات النظام المتزامن بالنظام التطوري ، مركزين متقابلين جذرياً . أما بالنسبة لبنات القيم *les structures de valeurs* ، كما في الاقتصاد ، فإنها تثل موقفاً وسطياً يرتبط بالنظام التطوري من ناحية تطور أدوات الانتاج ، وخاصة بالنظام المتزامن من ناحية التفاعلية نفسها للقيم .

بينما كان بلومفيلد ومساعدوه يطورون علماً لغة وصفيًا وتصنيفيًا، ومرتكزاً خاصة على أساليب تقسيمية *Méthodes distributionnelles* ، ومحددن بنوية النظام المتزامن السوسورية ، وجد هذا أشكالاً جديدة في دراسته علم اللفظ للكلامي (*la phonologie*) . وكانت « المقابلات » (أو الانقسامات الثنائية في داخل فئة) تخص إلى الآن العلاقات بين الدلائل والمدلولات ، في حين

(١) وازن يرتكز إداً على تماكسية متزايدة . بيتا الذي يقصد أكثر في علم اللغة هو المقابلات *oppositions* دون استبعاد إولييات ضبط ذاتي جامعي غير معروف جيداً في الوقت الحاضر .

أنه شُيِّدَ مع «تروپيز كوي» نظام مقابلات لفظية يُحدِّدُ اللفظ Phonème تبعاً لها، وما زالت توضح هذه البنيوية مع نظام العناصر التفاضلية لجكوبسون. ثم أصبحت البنية «مع «هيجلسلف» «يليه» ف. برونډال» و«توجي» (دون التمرض للجماليات الدلالية لـ «ج. تري» «أصبحت «كيان خاص ذات ارتباطات داخلية» وإذا كان «هناك نظام وراء كل دعوى» «السباق ليس سوى المر من نظام إلى آخر» وهو يمر غير مكوّن ولكنه عائد للرسوخ المكتسبة من النظام الثاني بمتضى التفاعلات المتزامنة كلياً. والفردات الغامضة التي يستعملها «هيجلسلف» تجعل نقاش أفكاره صعباً، لكن «يحدد الملاحظة بما يخص العلاقات بين اللغة والمتطق التي سنعود ونتكلم عنها» (في الفقرة ١٦) «أنه أقام فرضية نوع من Sublogique المصدر المشترك لهذه العلاقات. لكن بنيوته ليست في الأساس أقل ثباتاً» فهو يشدد على «التبعيات» dépendance وليس على التحويلات.

١٥ - البنيوية التحويلية والعلاقات بين تطور الكائن الفرد ontogenèse والنسالة phylogénèse .

من الأهمية بكان الملاحظة بأن شكل البنيوية اللغوية بدأ يأخذ منذ ه. هاريس، وخاصة مع شومسكي، اتجاهاً توليدياً واضحاً على صعيد بنية علم النحو رغم الأسباب القوية التي تربط البنيوية اللغوية باعتبارات النظام المتزامن. ويرافق هذا البحث في التواليد اللغوي، كما وجب، سعي نحو تعديد يتناول التحويلات التي تملك فوق ذلك، ولنستجّل ذلك، قدرة معيارية للفرز تستبعد بعض البنيات ذات التركيب السيء. تصل البنية اللغوية من خلال منظور كهذا، إلى صف البنيات الأكثر عموماً. تصل إلى هذا الصف مع قوانين الجملات التي ليست قوانين وصفية وثابتة بل قوانين تحويلات «مع ضبطها الذاتي العائد لميزات هذا التركيب».

إن دوافع هذا التعبير الملحوظ المنظور هي على نوعين، وهما تحليله في

سبيل دراسة مقارنة للبنىات (وليس فقط للبنىات نفسها) لأن كل منها يتألف من وضع يمكن وصفه دون مبالغة بأنه « متداخل في التعامل » ، « interdisciplinaire » . يتعلق النوع الأول بملاحظة الجانب الخلاق من اللغة ، وقد سبق « لهاري » و « م. هال » أن قاما بهذه الملاحظة . والمقصود هو الجانب الذي يظهر في الغالب على صعيد الكلام (في مقابل اللغة) أي الذي يظهر في مجال نفسي - لغوي psycholinguistique . وبالفعل ، فبعد ستين طوية من فقدان علم اللغة ثقته بعلم النفس ، جاء العلم النفسي - اللغوي ليميد بنساء الجسور ، وهذا امر هم شومسكي مباشرة : « في جميع اهتمامات البحث الحالي نجد ما يمكن تسميته على صعيد الاستعمال الجاري بالجانب الخلاق في اللغة . يجري كل شيء كما لو أن الشخص المتكلم ، يخترع نوعاً ما لفته كلما عبر » ، أو بعيد اكتشافها فور معامها حوله وكأنه قد دمج مع مادته الفكرية الخاصة نظاماً متأسكاً من القواعد أو قانوناً وراثياً (ونشدد على هذا) ، يحدد بدوره النفسي الدلالي لمجموعة غير محدودة من الجمل الحقيقية المتعبّرة أو المسموعة . ويجري كل شيء ، بكلام آخر ، كما لو انه يتصرف بقواعد توليدية للغة الخاصة^(١) .

إما الدافع الثاني الذي يستلهم شومسكي في بحثه عن قوانين تحويلات هذه « القواعد التوليدية » فيظهر أكثر تناقضاً لأنه يبدو متجهاً للوهلة الأولى نحو ثابتة fixisme جنسية ، ليس بالضبط نحو مفاهيم المصدر والتحويل : ان الفكرة القائلة بان قواعد اللغة تتركز جذورها في العقل وفي العقل القطري . وينفوس شومسكي بعيداً في هذه الطريق حتى يصل في كتاب له جديد الى اعتبار نفسه من اتباع « أرنو » و « لنساو » « la grammaire générale et raisonnée de Port - Royal وحتى لديكارت نفسه في محاليله العلاقات بين اللغة والفكر^(٢) .

(١) N. Chomsky : De quelques constantes de la théorie linguistique Diogenes , 1965 (No. 51) P. 14 .

(٢) المقصود عن ديكارت أكثر من الفكر بل الروح أو النفس « Esprit » .
للترجيم

وبالفعل ، تُستقى قواعد التحويلات التي تسمح ببناء سلسلات من بيانات مشتقة ، من بيانات مركزية ثابتة . وإليها يرجع شومسكي ويربطها بالمنطق (كالملاقة بين الذات والمحمول *Prédicat* . وهذا لا يمنع الموقف الجديد (الذي يقول عنه شومسكي : « انه يعود بنا إلى تقليد فكري قديم أكثر مما يؤلف ... تجديداً جديداً في مجال علم اللغة وعلم النفس)^(١) أن يشكل اختلافاً كلياً للمعنى بالنسبة للوضعية المنطقية: فبينما كان يريد هذا الأخير ، ويلييه « بلومفيلد » بحسب ، أن يرجع بالرياضيات إلى علم اللغة ، وبالحياة الذهنية كلها إلى الكلام ، فقام حينئذ علم اللغة يقول باشتقاق القواعد من المنطق واللغة ، في حياة ذهنية يوجهها العقل ...

ويتضح جيداً هذا الاختلاف للمعنى على الصعيد المنهجي . ففي مقال شيق بشكل ، وراء ما يحتويه من مجاملة وحسن عاقل ، نقداً لأدعاء الوضعية المنطقية وللأساليب اللغوية التي تتبع عنها^(٢) ، حللّ « أ . باخ » المسلمات الافتراضية للمعنى في بنى شومسكي تحليلاً دقيقاً .

ان ما يميز الجهد الجديد بالملاحظة في علم اللغة الأميركية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٥٧ حسب « باخ » هو الأسلوب الباكوني: التراكم الاستقرائي للوقائع ، هرمية مستويات غير متجانسة ، من المجالات (علم اللفظة ، علم النحو ، النح ...) التي ارتبطت نوعاً ما بعد فوات الأوان ، فقدان الثقة بالفرضيات ولكي نقول كل شيء عن الأفكار ، بحث عن « الأسس » في البيانات « الشكلية » النح ... بينما يفترض على العكس أسلوب شومسكي ، الذي وضعه باخ تحت رئاسة « كبلر » بالمقابل مع أسلوب « باكون » ، التحقق من عدم وجود أسس كهذه ، ومن حاجة العلم إلى الفرضيات (وحق إلى الفرضيات التي استطاع « ك . بوبر » أن يقول بأثر

(١) المقال نفسه ص ٢١ .

(٢) Emmon Bach : Linguistique Structurelle et philosophie des Sciences, Diogenes, 1965 (No. 51), p 117-136 .

أفضلها هو أقلها احتمالاً ، لكن التي تسمح ، لإمكانية ترويضها ، باستبعاد أكبر عدد من النتائج . نستنتج من ذلك إذاً ، انه بدل البحث عن الأسلوب الخاص بالوصول استقرائياً ، أي خطوة خطوة ، إلى خصائص اللغات المعينة وإلى اللغة عامة ، يتساءل شومسكي عما هي المسلمات الضرورية وللإلزامية لنظرية في علم قواعد اللغة ، وذلك بغية تحديد البنية المشتركة للغات وكذلك بغية تقريبها حسب اللغات الخصوصية المتنوعة . وتوصل شومسكي في الواقع إلى مفهومه للبنية اللغوية بفصل مزيج من التعقيد المنطقي - الرياضي يتعلق بالـ algorithmes ، والوظائف التي بالإمكان تكرارها والقوانين [شيفرة - أو لغز codes] ، كما يتعلق في الغالب أيضاً بالبنية الأولية للفكرة الواحدة Monoïde المرتكزة على التسلسل والترابطات العملية) ، وعلم اللغة العام (يتعلق في الغالب بعلم النحو لأنه عنصر خلاق) ، والعلم للنفس اللغوي (المعرفة الضمنية للتكلم عن لغته الخاصة) .

وبكلمة ، 'تقدّم البنوية على الشكل التالي: يمكن باديء ذي بدء للحصول تكرارياً على مجموعة قواعد كتابية (écriture) على كل شكل أ - ي حيث يرمز أ إلى الفئات (الجمل ، النخ ، ...) و ي إلى واحد أو عدة رموز (رموز جديدة لفئات أو رموز نهائية) . فإذا طبقنا عمليات التحويلات على سلسلات الرموز غير الناهية نحصل على بيانات مشتقة ، ويؤلف مجموع هذه التحويلات قواعد للغة التوليدية ، قواعد لغوية باستطاعتها قريباً إنشاء روابط بين دلالات اللفظة واللفظ في تراكيب ممكنة لا متناهية^(١) .

يشكل هذا الإجراء البنوي الصحيح أداة ممتازة للمقارنة ، إذ انه يستخلص نظاماً متماكباً من التحويلات (مؤلفاً شبكات معقدة تقريباً) ولكنه ينطوي على فائدة تطبيقه على الجدارة الفردية ، بما هي قواعد لغوية باطنية للشخص المتكلم أو المصنعي ، وتطبيقه أيضاً على اللغة كؤسسة . وقد أعاد بعض العلماء

(١) Chomsky, 1965, p 21

النفسيين اللغويين مثل «س. إرفن» و«و. ميلر» و«ر. براون» و«إ. بلوجي»
تكوين قواعد لغة الأطفال الغريبة والبعيدة كثيراً عن قواعد لغة الكبار .

وإن مثل هذه التطبيقات الواثبة للبنىوية للشومسكية لجديرة بالملاحظة : لأنها
أولاً تخفف من حدة التناقض الذي أراد أن يُقيمه « منذ » دويت ونثي « في سنة
١٨٦٧ و ١٨٧٤ دركاييم ودي سوسور (الذي تأثر من الاثنين السابقين) ، بين
اللغة كقائمة اجتماعية والكلام ، كما لو أنه لم يكن على هذه وعلى كل الفكر الفردي
مهما إلا أن تتقوّل في النطاقات الجماعية . ثم لأن هذا الاعتبار للدور الذي
يلعبه تطور الكائن الفرد ، وحتى إذا كان هذا التطور يدخل في نطاقات للنسالة
(phylogénèse) أو التطور الاجتماعي . ولكن في نطاقات عدل فيها دوماً
بالمقابل^(١) ، لأنه إذا وافق ميولاً يمكن لنا التماسها حالياً في تعاليم مختلفة جداً
كالبيولوجيا كما يفهمها « ودينغتون » ، وكالعلمومية الوراثية في ظواهرها الممتدة ،
هذا إذا صححوا لنا بهذه الإحالة .

يلاحظ اليوم الربط الممكن بين تطور الكائن الفرد والبنىوية اللغوية في
محالات كان يصعب في الماضي تصوره فيها ونقصد : على صعيد الانفعال الشعوري
l'affectivité والرمزية اللاواعية . وقد أهتم « ش بالي » وهذا صحيح ، منذ زمن ،
بما سماه « اللغة الانفعالية الشعورية le langage affectif ووظيفتها تقوية
التعبيرية l'expressivité التي تُبتدل باستمرار في اللغة الدارجة لكن « دراسة
الاساليب la stylistique » عند بالي ، كانت تبين في هذه اللغة الانفعالية الشعورية
قبل كل شيء ، تفكيك البنيات الاعتيادية للغة . ويمكن بالمقابل التساؤل إذا كان
للانفعال الشعوري لغته الخاصة وهي فرضية دافع عنها « فرويد » نهائياً وذلك
تحت تأثير « بلوير » و« جوتل » ، بعد ان اراد تفسير الرمزية بلعبة للقناعات ،
le jeu de déguisements . غير ان جانك كان يرى في الرموز غاذج مثالية

(١) لو كان الكبار يعيشون معدل ٣٠٠ سنة والمسافة بين الاجيال فيسعة ، فهل تتشابه
اللغات ، وحتى الأكثر مدنية ، بما هي عليه حالياً ؟ .

وراثية ، بينما فلتش فرويد بكل ادراك عن مصدرها في تطور الكائن الفرد .
ونبدو هنا في مجال لا علاقة مباشرة له بعلم اللغة ، رغم كونه مهماً للوظيفة
الرمزية ولعلم دلالة الامراض عامة la sémiologie . « جاك لا كان » هو أول
من تَنَبَّه حديثاً إلى ضرورة مرور أي تحليل نفسي عبر اللغة : انها لغة
التحليل طبعاً غير انه بطبيعة الحال لا يتكلم كثيراً ، ولغة التحلل خاصة . إذ
أن أساس السياق التحليلي النفسي يفترض بالنسبة للشخص أرت تنقل رمزته
الفرجية اللاواعية إلى لغة اجتماعية وواعية . مركزاً على هذه الفكرة الجديدة ،
استلهم « لا كان » من البنيوية اللغوية ومن نماذج رياضية معروفة ، في محاولة
لاستخراج بنيات تحويلات جديدة غامطاً لا يداخل لا عقلانية اللاوعي والرموز
التي لا يُعَبَّرُ عنها ، في قالب من لغة تهدف طبعاً إلى التعبير عن الشيء الذي
يمكن التعبير عنه . وفي هذا هنا محاولة ، يكفي مشروعها نفسه ، لأن يكون
ذا فائدة أكيدة . ولكنه من الصعب تحليل نتائجها قبل أن يَوْضَحَها « غير
المدرين » les non-initiés حسب المعنى الذي يعطيه جماعة المحللين لهذه
اللفظة الأخيرة (لأنه لو كان من البديهي وجوب التدرّب بمعنى معرفة الوقائع
التي تحدث عنها ، فلا يمكن بلوغ الحقيقة كما هي إلا بعد إبعاد التأثيرات التي
أولدتها) .

١٦ - التكوين الاجتماعي ، النظرية أو موازنة البنيات اللغوية .
يدفع هذا المزيج ، ذات الاهمية ، من التدريبية génélisme^(١) والديكارثية ،
الذي يميز شومسكي ، يدفع بهذا الأخير للدفاع عن رأي غير منتظر إيجاده عند
لغوي معاصر . ويربط هذا الرأي « بالأفكار الفطرية » التي تكلم ديكاوت عنها
وبالوراثة التي يجب عليها بنظر بعض البيولوجيين ، انتظار تفسير كل الحياة
الذهنية تقريباً . « إذا صح أن قواعد اللغات الطبيعية ليست فقط معقدة وبجودة
بل ومعدودة أيضاً بتنوعاتها خاصة على مستوى أقصى تجريد ، فيجدر أن تثار

(١) نظرية نفسية تقول بأن إدراك الابهام هو نتيجة لتدريب الحواس . - المترجم -

من جديد مسألة ما إذا كانت هذه القواعد هي حقيقة من ثمرة الثقافة ، كما درج الاعتقاد . فقد تكون اكتساب مجرد تقرير لتصوير ثابت فطري (نشديداً) عوضاً عن اكتساب تدريجي لمعطيات وتعاقبات وتسلسلات وتراطات جديدة . والقليل الذي نعرفه عن بنية اللغة بشكل عام ، يجعلنا نعتقد بأن الفرضية العقلانية تلك أكثر الفرض ، لأن تبرز في خطوطها المريضة كفرضية خصب وصحيحة أساساً (المقال نفسه ص ٢٠ - ٢١) .

وما نحن أمام الفرضية الكامنة عند أكثر المؤلفين الذين تدفع بهم ميولهم البنوية إلى الحذر من نظريات « التكوين النفسي la psychogenèse » ونظريات « الكون التاريخي historicisme » والذين في نفس الوقت لا يريدون الرفع بينياتهم إلى جواهر صورية *essences transcendantes* . ويتنوع الموقف أكثر عند شومسكي الذي يملك الحس الاختباري بقدر ما يملك حس التعقيد ، إذ تتميز القواعد اللغوية الخاصة حسب سياقات التحويل التي تدخل للطور الفعلي خلال مجرى التطور نفسه : أما الذي يبقى فطرياً ، فهو النواة أو « الشكل الثابت Shéma fixe » وأيضاً البنية الشكلية العامة للتحويلات ، بينما قد تتعلق منوعاتها بهذا الطابع الخلاق الذي في اللغة ويُشدد عليه مع « هاريس » . بيد أننا أمام مسألة أساسية بما يخص هذا « الشكل الثابت الفطري » ، وجم أن نتفحص ظواهره المتنوعة .

هناك أولاً المسألة البيولوجية . ولا يكفي التحقق من كون الصفة وراثية ، بل يبقى أن نلور كيفية تكوينها . إن مسألة فهم كيفية ظهور المراكز الدماغية للغة في مجرى الـ *hominisation* هي مسألة مزعجة جداً : التبدل والانتقاء الطبيعي حاولت ضعيفة ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحركة ولدت أساساً من الاتصال بين الأفراد .

لكن إذا كانت المورثة (*gènes*) المسؤولة عن اللغة ترى نفسها مكلفة بتقل ، وراثياً ، ليس فقط المقنونة على اكتساب لغة مُبَيَّنة من الخارج ، بل أيضاً

الشكل المكوّن الثابت من حيث تسج اللغة نفسها ، فان المشكلة تصبح عندئذ أكثر تعقيداً . وإذا كانت هذه النواة التكوينية فضلاً عن ذلك مشحنة « بالمقل » ، وإذا كان يجب إذاً بالإضافة إلى ذلك القبول بوراة هذه ، فلا يبقى سوى جوابين معقولين (لأن ، وللتشدد على ذلك ، الكلام عن التبدلات والانتقاء فقط دون أية معطيات تدعها هو ، كما يقول « برتلنفي » كاللجوء إلى : « moulin à prières tibétain ») ، فإما سبق التكوّن على الدوام (لكن لم إذا انتظار الإنسان لكي يظهر فيها أن الشنبزي أو التحلة خفيفي الدم ؟) ، وإما تفاعلات مع البيئة بشكل يصبح الانتقاء يتعلق بالارتكاسات ذي الطبع الوراثي بما هي أجوية من Génome على الدوافع الخارجية .

لكن ، ما ان نبلغ صعيد تكوّن الكائن الفرد حيث يصبح تفصيل الاكتسابات والتحويلات حقيقياً ، حتى نجد أنفسنا أمام وقائع تختلف عن افراضات شومسكي بالنسبة لأهمية أو امتداد نقاط الانطلاق الوراثية ، رغم انها تكشف عن علاقات أكيدة معها (راجع الفقرات ١٢ و١٣) . والسبب يعود بدون شك وببساطة إلى أنه يوجد وحيث لا يرى شومسكي سوى تخيير بين أمرين - اما شكل فطري يفرض نفسه ضرورة ، وإما اكتسابات خارجية وبالأخص ثقافية ، لكن متنوعة ولا تقصر الميزة المحدودة والحتمية للشكل المقصود - فإنه يوجد في الحقيقة ثلاث حاول للتخير وليس اثنان فقط : هناك طبعا الوراة أو الاكتسابات الخارجية ، ولكن أيضاً سياقات الموازنة للداخلية أو الانتظام الذاتي ، غير ان هذه السياقات توصل كالوراة إلى نتائج حتمية وحتى من نواحي أكثر حتمية ، لأن الوراة تتنوع أكثر في مضامينها من القوانين العامة للتنظيم معبرة عن الضبط الذاتي لكل تصرف . وبالأخص أن الوراة لا تتعلق سوى بمضامين منقولة ، كما هي أو غير منقولة ، بينما يفرض الانتظام الذاتي وجهة ملسجمة مع تركيب يصبح حتمياً ، وبالضبط لكونه مَوْجَه .

يدافع عن هذا التفسير في حالة البنيات اللغوية نوعين من الاعتبارات يجعلان

من فرضية الفطرية غير نافعة في نفس الوقت الذي يحافظون فيه على مجمل نظام شومسكي التفسيري : انها من جهة أمل تحقيق إرالي آلي réalisation cybernétique للتواعد اللغوية التحويلية ، ومن جهة أخرى تحليل التكوين النفسي للشروط المسبقة التي تحمل بمكنة اكتسابات اللغة خلال السنة الثانية من النمو .

يجب بما يتعلق بالنقطة الأولى ، أن نذكر أعمال س. سوجبات في أكاديمية موسكو للعلوم الذي يحاول إدراج التحويلات القائمة في « مجال للتحويلات » على أساس « relateurs » يزودون بـ algorithmes التركيب الأوتوماتي^(١) . ويمكن أن نأمل كثيراً من تحاليل كهذه تستخلص الشروط الضرورية واللازمة للنظام أو تبين على العكس حدوده . غير أنه يمكن لهذه أيضاً أن تكون مفيدة لاشكلتنا لأنه لو صح ، كما يفترض « بار - هيل »^(٢) أن للنظم الشكلية التي تنطبق على قواعد اللغة لا تحتوي على إجراء حل كامل ، لكأنت عندئذ فرضت النتائج التي تسببها حدود التعميد (راجع الفقرة ٨) على صعيد المطلق ، ضرورة وجود هنا وهناك ، بناء على درجات متتالية ولاستبعدت مفهوم نقطة الانطلاق التي تحتوي على كل شيء مسبقاً .

أما من حيث معطيات الاختيار وليس من حيث التعميد أو الآلات الإوالية ، التي تحول الطابع ، فيبدو أن بنائية كهذه هي التي تفرض واقع ظهور اللغة متأخرة نسبياً خلال السنة الثانية من النمو : لم ، بالفعل ، هذا المستوى المحدد من النمو وليس مستوى أبكر ؟ وخلافاً لشروح السهبة حول التثقيب التي لو كانت صحيحة لفرضت اكتساب اللغة منذ الشهر الثاني ، يتبين ان اللغة تعترض تكويناً مسبقاً للذكاء الحسي نفسه مما يبرر أفكار شومسكي حول ضرورة وجود أساس حليف للعقل .

(١) Diogène, 1965, (No. 31) p 131 .

(٢) Decision procedure in naturel langage, Logique et analyse

. 1959

لكن هذا الذكاء نفسه بعيد عن أن يتكون مسبقاً منذ البداية ، ويمكن أن يتابع خطوة خطوة كيف انسه ينتج عن تنسيق تدريجي لتصورات التمثل . وفرضت الفكرة التي صمود وتناول أعمالها حالياً ، على « ه . سنكلر » البحث عن مصدر « الوحدة الفكرية » لشومسكي في سياقات تكرار ورتيبات وصلات ارتباطية (بالمعنى المنطقي للكلمة) خاصة بهذا التنسيق للتصورات الحسية . إذا ثبتت الفرضية يكون لدينا تفسير ممكن للبنيات اللغوية الأساسية موفرين بذلك « فطرية » مرهقة للغاية .

١٧ - البنيات اللغوية والبنيات المنطقية . بإمكاننا العودة الآن إلى مشكلتنا التي انطلقنا منها والتي تبقى إحدى المشاكل الأكثر جدالاً في البنيوية أو في المعنوية بشكل عام . وحيث يجب على حلولها الجديدة أن توافي شتى أنواع الاحتياطات . حتى أن لغويًا سوفياتيًا كسوجان ويملن ، في مركز ثقافة حيث ، ظهر منذ بضعة سنوات ، بأن المفهوم البقلافي le concept pavlovien اللغة كنظام فإن التعبير قد حل جميع المشاكل ، يملن في موضوع العلاقات بين اللغة والفكر بأنها تشكل « إحدى أكثر المشاكل للقيمة والشائكة التي لطرح حالياً » . زد على ذلك أن هدفنا ليس عرض المشكلة العامة في بعض الأسطر بل هو فقط الإشارة من منظور البنيوية وحده ، إلى جوانب المشكلة على ضوء التقدم الذي تحققت في دراسة البنيات اللغوية .

ينبغي مع ذلك أن نبدأ بتذكير شيين مهمين : أولها هو انفسا نعلم منذ سوسور وكثيرين غيره بأن الشارات الشفهية لا تشكل إلا إحدى جوانب الوظيفة الرمزية وبيان اللغوية ليست ، قانوناً ، سوى قطاعاً مهماً بوجه خاص ، لكنه محدود هذا الفرع الذي دعا سوسور بأمانه إلى تأسيسه تحت اسم « علم دلالة الأمراض العام » « la sémiologie » وتشمل الوظيفة الرمزية ، بالإضافة إلى اللغة ، على التقليد بأشكاله التصويرية (تقليد مؤخر الخ ... يظهر في آخر المرحلة الحسية مؤمناً بدون شك ، الربط بين الحسي والتصوري) ، والإيماء

الإشاري *la mimique gestuelle* ولعبة الرمزية ، والصورة العقلية الخ ... وغالباً ما ينسب بسان تطور المرض والفكر (دون الكلام عن البنيات المحض منطقية) يكون مرتبط بهذه الوظيفة الرمزية بشكل عام وليس باللغة وحدها ، وعلى هذا ، أن الأولاد الصمم - بكم الذي لا يشكون من خلل دماغي ، يملكون لعبة الرمزية (أو الخيال) ولغة الإشارات الخ ... (خلافاً لحالات الصمم بكم المرتبطة بالخلل الدماغي والتي لا تملك الوظيفة الرمزية) . وإذا درسنا عملياتهم المنطقية المعوسة (السلسلات والتصنيفات والحفاظات ، الخ ...) كما فعل دب . أوليرون ، ، ، ، هـ . هـ . فورت ،^(١) م . هـ . فسانت ، ر . ف . أفولتر ، الخ ... نشهد تطور هذه البنيات المنطقية مع بعض التأخر أحياناً لكنه أقل بروزاً مما هو عند العميان الصغار منذ ولادتهم ، والذين درسهم دي . هـ . هول ، . واللغة عند هؤلاء الآخرين وهي عادية ، لاتعوض عن نقص في تكييف التصورات الحسية إلا متأخرة . يتأخر غياب اللغة ، عند الصمم بكم ، لا يستبعد البنيات العملية ، ويمكن أوجاع التأخير ، بمعدل سنة أو سنتين عن المجرى الطبيعي ، إلى غياب انعاش اجتماعي .

أما الشيء الثاني الذي يجب ان تذكره فهو أن الذكاء يشق اللغة ، ليس فقط من ناحية تطور الكائن للفرد كما رأينا في الفقرة ١٦ ، وكما أكدته مـنـكـل' الصمم بكم بل ايضاً من ناحية تكون النسالة كما تثبت الاعمال المتعددة جداً حول الذكاء عند القردة المتفوقة . غير ان الذكاء الحسي يتألف قبل من عدد من البنيات تتعلق بالتنسيقات العامة للفعل *action* (التسلسل ، دمج التصورات ، ، ، ، التطابقات الخ . .) ومن المستبعد اذاً اسناده الى اللغة .

وعلى هذا ، يبقى بديهاً ان اللغة اذا كانت تنشأ من ذكاء مبني جزئياً ، فانها 'توكل' في المقابل ، ومن هنا تبدأ المشاكل الحقيقية التي لا يمكن لنا الادعاء بانها

(١) إن مؤلف فورت *Thought Without language* (١٩٦٥) الشيق ، معيد جداً في هذا الصدد بفضل البراعة التقنية المستمدة ووفرة البرامين .

قد حُلّت . لكن بفضل الاسلوبين اللذين تُتقن من التحليل التحويلي الذي يسمح بدراسة التمرينات النحوية (M.D.S. Braine مثلا) ، ومن التحليل العملي الذي يسمح بالتجارب على تعلّم البنيات النطقية (« انهلدر » ، « سنكلر » ، « وورثي ») فاننا قادرين في النقاط الخاصة على تحليل بعض الصلات بين النوعين من البنيات وحتى أيضاً على استشفاف إلى أي مدى يوجد تفاعلية ، وأي من البنيات اللغوية أو المنطقية يبدو أنه يحجر بناء الأخريات .

وعلى هذا ، عرضت هـ . سنكلر في كتاب يضم مجموعة من تجاربها النتائج التالية : شكلت أولاً مجموعتين من الأطفال معتمدة كميزان لمستواهم العملي ، مقدرتهم أو عدم قدرتهم على استنتاج بقاء نفس الكمية من سائل في حال صبّها في أوعية مختلفة الأشكال : تتألف المجموعة الأولى ، وواضح بأثر مقدرتها العملية لم تكنسب بعد ، من أشخاص يتفون بقاء نفس الكمية بينما أقررت بها المجموعة الثانية مسبقاً وبرررتها ببراهين التماكسية والموازنة . ثم حُلّت من جهة ثانية لمة هؤلاء الأشخاص بواسطة إجراء لا يمت بصلة باختبار بقاء الكمية ، ولكن يتعلق بوصف شيئين محسوسين أو بمقارنة مجموعتين فيما بينهما : مثلاً : قلم كبير مع قلم صغير ، قلم طويل رفيع مع آخر قصير غليظ ، أو مجموعة من ٤ أو ٥ كريات وأخرى من اثنتين الخ... ثم يطلب منهم تنفيذ الأوامر : « أعطني قلماً يكون أصفر » أو « يكون أصفر وأرفع » الخ... والحالة هذه ، فقد تبين أن لغة المجموعتين تختلف كلياً . كل ما يستعمله أشخاص المجموعة الأولى هو مطلقاً « Scolaires » (بالمعنى اللغوي) : « هذا كبير » وهذا صغير « أو « يوجد كثير » « وهنا غير كثير » الخ... أما أشخاص المجموعة الثانية ، فإنهم على العكس يستعملون خاصة « les vecteurs » : « هذا أكبر من الآخر » ، « له منه أكثر » الخ... زد على ذلك انه في حال وجود اختلافين ، يميل أشخاص المجموعة الأولى احدها أو يتصرفون بأربعة جمل محورية : « هذا كبير » ، هذا صغير ، هذا رفيع (الأول) ، هذا غليظ » ، بينما تسجل المجموعة الثانية على

العكس ، ارتباطات مزدوجة كقولهم : « هذا أطول وأرفع » ، والآخر أقصر وأغلظ » الخ .

وعلى هذا ، يوجد إذا صلة أكيدة بين المستوى الحسابي والمستوى اللغوي ونرى دفعة واحدة ما يمكن للبنية الشفهية لأشخاص المجموعة الثانية ، من مساعدة منطقتهم . والحال يفهم أشخاص المجموعة الأولى تعبير المستوى الأعلى وتسمح المراقبة بتنفيذ الأوامر والتحقق من ذلك بتفصيل . فإخضع هـ . شكل أشخاص المجموعة الأولى لتمرين لموي شاق ، لكن يمكن : ثم بعد فحص جديد لفاهيم بقاء الكمية ، لم يلاحظ سوى تقدم ضئيل ، ولنقل حالة واحدة من بين حوالي عشرة .

يجب طبعاً الاكثار من اختيارات كهذه . فإذا بدى على مستوى العمليات المموسة ، راجع (الفقرة ١٢) « أن البنية العملية تسبق وتنتج البنية اللغوية لترتكز بالتالي عليها ، فيبقى إذا أن تتفحص بواسطة اجراء مماثل ما يجري على صعيد عمليات تركيب الجمل حيث تتبدل لغة الأشخاص بشكل يميز في الوقت الذي يصبح فيه منطق تفكير الأشخاص « افتراضياً - استنتاجياً » - hypothetico-déductif . إذا كان بدوي اليوم أن اللغة ليست مصدر المنطق ، وإذا صدق شومسكي بإركار الأول على الثاني (اللغة على المنطق) فيبقى تفصيل تفاعلها بجاء لدراسات بدوي حالياً الاطلاع عليها بأساليب الاختبار والتعقيد الموافق له ، والوحيدة التي يمكن أن تغني النقاش بشيء أكثر من الأفكار .

استعمال البنيات في الدراسات الاجتماعية

٦

١٨ - البنيويات الالهائية أو المنهجية . - إذا كانت البنية نظام تحويلات له قوانينه من حيث أنه مجموع ، وله قوانين تؤمن ضبطه الذاتي ، فإن جميع أشكال الأبحاث المتعلقة بالمجتمع ، مهما اختلفت ، تؤدي إلى بنيويات . ذلك ان المجموعات أو المجموعات الفرعية الاجتماعية تفرض نفسها على الفور من حيث أنها مجموع ، هذه المجموعات دينامية إذا هي مواضع تحويلات ، وان ضبطها الذاتي يُعتبر عنه خاصة من جراء الواقع الاجتماعي للضغوط ، بشق أنواعها ، وللضوابط والقواعد المفروضة من قبل الجماعة . لكن بين هذه البنيوية الاجالية والبنيوية الحقيقية ، لأنها منهجية ، يوجد على الأقل اختلافان .

الأول يتعلق بالانتقال من البروز إلى قوانين التركيب : ما زالت الجملة عند « دركام » مثلاً في طور البروز فقط ، لأنها تنبثق من نفسها عن إنتاج المركبات مؤلفة بذلك مفهوماً أول يفسر كما هو : وعلى العكس ، يعتبر « كلود ليفي شتراوس » بأن مرسيل موس مساعد دركام الخيم ، هو الملم الأول للبنيوية الأندروبولوجية (او الإنسانية) لأنه فتش ، بالأخص في دراسته عن الموهبة ، واكتشف تفصيل التفاعلات التحويلية .

والاختلاف الثاني الذي ينتج عن الاول هو ان البنيوية الاجالية تملق بنظام العلاقات أو التفاعلات التي يمكن ملاحظتها ، والذي يعتبر بأنه مكثف

بذاته ، في حين أن ما يخص البنيوية المنهجية هو البحث عن تفسير لهذا النظام في بنية فرعية تسمح بتفسيره تفسيراً نوعاً ما استنتاجياً ، والمقصود هو تشكيله من جديد بواسطة بناء نماذج منطقية رياضية : لاندخل البنية في هذه الحالة ، وهو شيء أساسي في نطاق « الوقائع » التي يمكن الاعتراض عليها ، وتبقى لا وافية عند الأعضاء الافراديين للجماعة المقصودة (وغالباً ما بشدد ليفي شتروس على هذا الجانب) . وهنا توضيحيان مهمان جداً في علاقتها مع البنيويات الفيزيائية والنفسية : يجب إعادة تشكيل البنية الاجتماعية استنتاجياً ، مثل السببية في الفيزياء ، إذ لا يمكن اكتشافها على أساس أنها معطى . ذلك يعني أنها بالنسبة للعلاقات التي يمكن الاعتراض عليها ، مثل السببية بالنسبة للقوانين في الفيزياء : والبنية من جهة ثانية ، كما في علم النفس ، لا تنتمي الى الوعي بل إلى التصرف ، ولا يكتسب الفرد منها سوى معرفة بسيطة بفضائل حالات من الوعي غير المكتمل ، تحدث في مناسبات من عدم التوافق *désadaptations* . فإذا ابتدأنا بعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، وهما في عين من العلم يزداد غموض حدودهما (مثل جميع التعاليم الأكثر ارتباطاً برغبة في الاستقلالية المهنية منها بطبيعة الأشياء) ، يمكن أن نرى عند « كلفين » مثلاً غموضاً من الآمال ، والتحقيقات الجزئية وميزة تداخلية التعاليم ، الضرورية لبنيوية منهجية . انه تليد لـ «و. كوهلر» في برلين ، وقد شكل قبل الأوان مشروع تطبيق بنية الجشطالت على دراسة العلاقات الاجتماعية ، لذا فهم مفهوم « المجال » : بينما لا تؤلف المجالات الحُدُركة والمعرفية بشكل عام ، بالنسبة للصيغيين سوى مجموعاً للعناصر المضبوطة في آن واحد (هذا التيار الكامل الذي يضم جهاز الشخص العصبي ، ولكنه ، كما رأينا في الفقرة ١١ ، لا يضم نشاطاته المتأينة عن الجهاز) . ويقترح « كلفين » مفهوماً لتحليل العلاقات الانفعالية الشعورية والاجتماعية ، انه مفهوم « المجال الكلي » [*le champ total*] الذي يضم الشخص مع ميوله وحاجاته . لكن ليست هذه الميول والحاجات داخلية فقط ، ويشير الشيء ، تبعاً لشكل لشكل المجال الخارجي وتبعاً لقربه خاصة ، يشير تحريضات تشهد على تفاعل كامل

للمنصر القائمة . بعد ذلك، ومستلها من الطوبولوجيا (هندسة لاكمية) ، يحلل
لفين مجاله الكلي مستملا عبارات الحوازات والانفصالات ، والحدود (المتضمنة
الحواجز النفسية ، أو الكبت والمنع من شق الأنواع) والتغطيات والتقاطعات
الخ... : طوبولوجيا فلما تكون للأسف رياضية ، بمعنى انه لا يوجد فيها نظريات
معروفة يمكن تطبيقها على المجال الكلي لا أكثر ، غير انه يجب الاعتراف بأنها
طوبولوجيا في معنى تحليل مكاني محض كلفي باستبصاراته الأساسية للتراكييب .
ويدخل 'لفين' ، في المرحلة التالية ، الاتجاهات مع فائدي وصف الكليات
عن نظرية graphes والوصول الى بنيات شبكات structures de réseaux .

وقد أوجد ليفين وتلاميذه (لبت ، وايت ، ومنذ مدرسة برلين ، دمبو ،
هوب وزايفارنيك) ، عن لريق هذه الأساليب البنيوية المحضة ، أوجدوا علم
نفس اجتماعي واقفالي شعوري ، عرفت تطورات كبيرة في الولايات المتحدة
وكان احد المراجع الأساسية لبحاث عديدة حالية حول « دينامية الجماعات » .
(وما زال يوجد مع كاروروايت مؤسسة مختصة لهذه الدراسات في آن اربور) .
وتقدم اليوم هذه الابحاث التي توالدت بشق التنوعات ، مثلاً جميلاً حول
التحليل التي تركز كلباً على الاختيار ولكنها تعود ، عند التفسيرات ، لبناء
النماذج البنيوية ، حق انه يوجد اختصاصيون في هذه النماذج الرياضية بما يخص
الجماعات الصغيرة (مثل « ر.د. لوس » في الولايات المتحدة ، و « كلود فلامان »
في فرنسا) .

لا شيء جدير بالذكر هنا بالنسبة لعلم اجتماع الجماعات للصغيرة [la macrosociologie] و علم قياس العلاقات الاجتماعية [la sociométrie] لأنها إما ظلاً
إجماليين كثيراً بالمتى الذي ميزناه قياً قبل ، أي خضوع كلفي للعلاقات الملحوظة
والتي لا تشكل بنية حتى لو تكاثرت في تعددها « الديالكتيكي » ، وإما انها
يرتكزان على أساليب إحصائية جارية تعبر عن العلاقات بأرقام ولكنها مع
ذلك لا تصل بذلك إلى بنيات .

في مقابل ذلك، يشير طبعاً علم اجتماع الجماعات الكبيرة [la macrosociologie] المسائل البنوية الكبيرة . وسننتظر الفصل السابع للتذكير بالطريقة التي ترجم فيها «ألتور» الماركسية إلى البنوية، وهذه هنا مسألة هم الديالكتيك كلها ولكن يحذرنا هنا العودة إلى مؤلفات بارسونس الذي يشير من جديد بأسلوبه « البنائي الوظيفي » مشكلة البنية والوظيفية (التي سبق ان عرضنا لها في الفقرة ١٣) . يجب بالفعل ذكر اسم بارسونس كخارج جزئياً عن نطاق الاتجاه الانكليزي - ساكسوني العام التجريبي الذي لا يتكلم عن البنيات إلا فيما يخص العلاقات والتفاعلات الممكنة ملاحظتها . ذلك ان بارسونس بتحديد البنية كترتيب ثابت لمناصر نظام اجتماعي بعيد عن التقلبات التي تُفرض عليه من الخارج ، متقاد لأن يحمد نظرية للتوازن بكل دقة . وقد دفعه هذا الاتجاه الانكليزي - ساكسوني إلى أن يبعد إلى مساعد أمر استنباطها . أما الوظيفة ، فالفهم انها تتدخل في قطاعات البنية مع الظروف الخارجية لها .

لا يمكن إذا فصل الوظيفة والبنية عن نظام كلي يمكن القول بأنه يؤمن بقاؤه بواسطة انتظامات ، والمشكلة التي راودت « بارسونس » دائماً هي في كيفية دمج الافراد للقيم المشتركة . وقدم من هذا المنظور نظرية « للفعل الاجتماعي » محللاً شتى أنواع الخيارات [alternatives] التي يكون الفرد أمامها حسب يرفض أو يخضع للقيم الجماعية .

ويرتبط مؤلف بارسونس بمؤلف « ليفي » الذي يقصر البنيات على التشابهات الملاحظة ، والوظائف على ظهور البنيات عبر الزمن . تبدو لنا هذه العلاقات بين التزامن والتطور (Le chronique et le dichronique) مختلفة بعض الشيء حسب المقصود : معايير ، قيم (معيارية أو قطرية) ورموز للمعنى الواسع أو شارات (راجع الفقرة ١٤) . غير انه لا شك بان الصلة التي يقيمها بارسونس بين الوظائف والقيم عميقة جداً : في بيئة اجتماعية ، تعبر عن البنيات ، مهما تكن لا واعية ، آجلاً أم عاجلاً ، معايير أو قواعد تفرض نفسها على الافراد بشكل ثابت تقريباً . لكن مهما تكن مقتنمين بدور البنيات (مسألة علينا

مناقشتها : الفقرة ١٩) يبقى انه يمكن ان يكون لهذه القواعد عمل متنوع ، مما يظهر عبر التغيرات التي تطرأ على القيم : خير ان للقيم بما هي قيم ليس لها « بنية » سوى بالضبط ، بقدر ما يركز بعض من أشكالها على معايير معينة مثل القيم الاخلاقية . وهكذا فان الازدواجية والارتباطات معاً للقيمة والمعايير ، يؤكدان على ضرورة إعادة ربط البنية والوظيفة مع ضرورة تمييزهما أيضاً .

ان هذه المشكلة للوظيفة والبنية هسي التي تسيطر على مسألة البنيات الاقتصادية عندما يحدد « ف. برّو » البنية بـ « النسب والعلاقات التي تميز مجموعة اقتصادية محددة في الزمن والحيز » . وتحديدات المفهوم نفسها تبين اختلافها مع تحديدات البنيات التي كانت موضوع بحثنا حتى الآن . غير ان الحكمة لا تقف عند حد كون برّو يبدو حاصراً نفسه بالعلاقات الملحوظة . ويرى تبرز في البنية الاقتصادية « اعتباراً لميزات غير ملحوظة مباشرة تتعلق بالطريقة التي يستجيب بها الاقتصاد لبعض للتغيرات » ، يُعبر عن هذه الميزات في الاقتصاد القوي [*économétrie*] بالفاظ معدلات *coefficients* و « مجموع هذه المعدلات يقدم إعلام مزدوج » : يعطي من جهة عن الاقتصاد صورة هندسية ، ويحدد من جهة اخرى ، طرق الاستجابات لبعض هذه التغيرات . ولا يسعنا إلا القول بان البنية الاقتصادية تستوجب الاشتغال إذ أنها قابلة للاستجابات هذا يعني انه لا يمكن فصلها عن الوظائف .

أما طبيعة هذه البنية ، فقد ركزناها على تحليل التوازن ، لكن عندما أصبحت المشكلة الأساسية مشكلة دينامية الدورات ، ارتأينا للتئين من المفهوم إلى معنى الاشتغال بالتحديد : اعتبر مارشال ان الحل يكون بتوسيع بنية التوازن ، كما في الفيزياء ، إلى بنية « تنقلات التوازن » [*déplacements d'équilibre*] فيما سعى كينز الى دمج المدة بشكل التنبؤات والحسابات التي للموضوع الاقتصادي في الحاضر . وكما يقول ج ح غرنجر يصبح المفهوم البنائي للتوازن ، في

هاتين الحالتين (أو غيرهما) «مدبراً موجهاً» opérateur يسمح بتفسير للدورات .

غير ان ميزة البنيات الاقتصادية لا ترتبط فقط بالأولية المعطاة للاشتغال : بل انها تحتوي ، وبدون شك لهذا السبب نفسه ، على طابع احتمالي بالخاص ، نتيجة عندئذ ان الضبط الذاتي للبيئة لا ينجح بعمليات معصورة بل بانتظامات تنجح برجات فعل وقرععات تقريبية من نوعية الـ feedbacks . وتلاحظ هذه النوعية الفردية من البنية على صعيد القرارات الفردية للشخص الاقتصادي du sujet économique (نظرية الالاماب) théorie des jeux مثلما تلاحظ على صعيد المجموعات الاقتصادية الكبيرة التي حلها الاقتصاد الماتري . واستطاع غرايغر القول بأن نظرية الالاماب كانت تدل على استبعاد العوامل النفسية، ويصح قوله هذا إذا لم تفكر سوى بعلم النفس المختصر قليلاً لبارتو أو دوروم-باروك. لكن عندما نتذكر دور إولاليات القرارات هذه في التصرف بشكل عام (وليس الوعي) وهذا ليس فقط على الصعيد الانفعالي الشعوري (الذي يُعبر كما برهن جانيت عن كامل بنية économie داخلية للسلوك)، بل أيضاً على أصعدة الادراك والنمو المعرفي^(١) . نحن مدعوون على العكس لان نرى في نظرية الالاماب تلاحاً آمناً من ذي قبل، بين البنيات الاقتصادية وانتظامات الشخص الانفعالية الشعورية والمعرفية. أما أنظمة المفعول الارتجاعي feedbacks الكبيرة التي يستخلصها الاقتصاد الماتري من علم الاقتصاد الجمعي ، فهي معروفة بما فيه الكفاية وأكثر ، فلا ضرورة للتشديد عليها .

تقدم البنيات التي تتعلق بالمعايير ، في مقابل القيم الطبيعية ، ميزة عملية ، بالمعنى المنطقي للفظ ، جديرة بالملاحظة . ويعلم الجميع الطريقة التي وصف بها كلسن بنية القانون كهرم معايير ، موثوقة بواسطة علاقة تضمينية عامة بين

(١) المجالات حيث امكن لنظرية الالاماب ان تطبق ينجح .

معايير اسماءها بـ « الاتهام الكاذب » imputation وقد جعل في قمتها المعيار الاساسي الذي يؤسس شرعية الكل وخاصة الدستور ، ومن هذا الاخير نستقي شرعية القوانين التي تؤسس شرعية قرارات الحكومة أو قرارات سلطة المحاكم. ولهذا السبب تكتسب « القرارات الرسمية » الصفة الشرعية وهلم جرا حتى نصل إلى تعدد « المعايير المفردة » normes individualisées ، الاحكام الجزائية ، التعميمات الفردية ، الشهادات ، الخ. لكن إذا كان بإمكان هذه البنية الجميلة أن توضع على شكل شبكة جبرية (بمعنى أن كل معيار هو « تطبيق » للمعايير الأعلى) ، وذلك لا يتعلق بالمعايير الاساسية التي لا شيء فوقها ، وفي نفس الوقت انشاء لمعايير أدنى منها ، وقد لا يعني المعايير المفردة التي لا شيء تحتها ، فما هي طبيعتها عندئذ ؟

طبعاً ، سيقول علماء الاجتماع انها طبيعة اجتماعية غير ارت كلسن يجيب بانه لا يمكن قصر المعيار على الواقع . ثم يزيد كلسن نفسه : انها طبيعة معيارية بذاتها (جوهرياً) ولكن يربط المعيار الاساسي في هذه الحالة إذا كان هذا المعيار لا يصدر عن فعل « اعتراف » بإمكانية « الافراد ذوي الحقوق » لأن يصفوا عليه شرعية ؟ ويعتقد أنصار « الحق الطبيعي » بأنها بنية مرتبطة « بالطبيعة الانسانية » بما هي طبيعة : انها حلٌ يدهي للذي يعتقد بأبدية تلك الطبيعة الانسانية ، لكنها لا تشكل سوى مجرد حلقة للذي يحاول فهمنا بالرجوع إلى تكوينها .

١٩ - بنويوة كلود ليفي شتراوس الانثروبولوجية . - اهتمت اساساً الانثروبولوجيا^(١) anthropologie الاجتماعية والثقافية بالمجتمعات البدائية حيث لا يمكن فصل السياقات النفسية الاجتماعية عن البنيات اللغوية

(١) ويقال أيضاً « إناسة »: أي العلم الذي يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته .
- مللترحم -

والاقتصادية والقانونية ، ومن هنا تشعبنا على هذا العلم التركيبي وذلك لتدارك
الجهاز الملاحظات التي سبقت . بما ان كلود ليفي شتراوس ، من جهة أخرى ،
هو جسد ذلك الاعتقاد بدوام الطبيعة الانسانية ، فإن بنيويته الأنثروبولوجية
تعرض ميزة مثالية وتشكل النموذج ، لا الوظيفي ، ولا الوراثي ولا التاريخي ،
يل الاستقرائي الأكثر دقة الذي أمكن استعماله في علم انساني تجريبي : ولهذا
السبب يقتضي منا ، في هذا المؤلف ، تفحصاً خاصاً . بالفعل يبدو لنا غير معقول
وجود صلة بين هذا المذهب للبنية كواقع أول حياة الانسان في المجتمع ، وبنيوية
اللكام البنائية التي توسعنا فيها في الفقرة ١٢ و ١٣ .

وتفيد لتفهم جودة الاسلوب ، رؤيته مطبقاً على الـ « pseudo - entités »
للطوطمية totémisme التي انشأت المفهوم الرئيسي لكثير من علوم الاجتماع
الانثوغرافية^(١) Ethnographiques وينتهي « ليفي - شتراوس » من مقطع عميق
للكلام حول الإربالات المنطقية اللازمة لكل دين بدائي ، الى « عملية ثقافية لا
يمكن لحصاتها بالتالي ان تكون انعكاساً للتنظيم المحسوس للمجتمع » (ص ١٣٨)
ومن هنا الرفض لأولية العامل الاجتماعي على العقل intellect . هو ذا المبدأ
الاساسي الأول لهذه البنيوية التي ستبحث وراء العلاقات « المحسوسة » عن بنية
خفية وغير موعية ، لا يمكن الوصول اليها إلا عبر بناء استقرائي لتأرجح مجردة .
ينتج عن ذلك نظرة متزامنة لكنها تختلف في الواقع عن نظرة علم اللغة . غير
انها من جهة « مبررة » مجهلنا المضال لأصول الاعتقادات والتقاليد لكن ، من
جهة أخرى ، وهنا يتنوع النظام المتزامن أقل مما يتنوع نظام اللغة ، « تُقدّم
التقاليد على انها معايير خارجية قبل أن تُقرّلد احاسيس داخلية ، وتحدد هذه
المعايير غير المحسوسة ، الاحاسيس الفردية كما انها أيضاً تحدد الظروف حيث يمكن
لها ويجب عليها ان تظهر » غير ان هذه المعايير تملق « بالبنيات » الدائمة .

(١) يقال ايضاً : العرافة : وهو علم يبحث في خصائص الشعوب . - المراجع -

(١) Cl. Levi Straus : le totémisme aujourd'hui 2me. édit. 1965

وبالتالي عندئذ ، فإنّ تزامنا كهذا يُعبرُ بعض الشيء عن نظام تطوري ثابت !
ولسنا نقصد طبعاً بأن ليقي شقراوس يريد نحوّ التاريخ ؛ البنيات توجد فقط
حيث يسخر التاريخ التغيرات ، وهي هذه المرة بنيات تطويرية^(١) لكنها لا
تتعلق بالمقل الانساني .

وبما يخص هذا الأخير ، فالتاريخ « لازمٌ لإعطاء جلة عناصر أية بنية »
انسانية أو غير انسانية . وبعبارة عن أن يوصل البحث عن المعقولة
intelligibilité إلى التاريخ أو إلى نقطة انطلاقه ، فالتاريخ هو الذي يلعب دور نقطة
الانطلاق لكل بحث عن المعقولة ... والتاريخ يوصلُ إلى كل شيء شرط الخروج
منه « (من كتاب : « الفكر الهمجى : la pensée sauvage » ص ٣٤٧ -
٣٤٨) » ومن البديهي أن يكون موقف كهذا مضاداً للوظيفية
antifonctionnalisme على الأقل بالنسبة للنظورات مثل منظور ملينوفسكي ،
بيولوجي وسيكولوجي أكثر منه انتولوجي « ، أي « طبيعي » ، وتقعي
وانفعالي شعوري « (الطوطامية ص ٨٢) . فإذا عدنا إلى بعض النتائج المنتشرة
من التفسير المستوحى من الفردية ، نفهم لماذا يبدو أن ليقي شقراوس يتسب
احياناً حصراً ، مثل هذا ، إلى المقدرات التفسيرية للبيولوجيا ولعلم النفس .
يجب بالفعل أن « تصفق » لهذه الملاحظات التقريرية حول التفسيرات بالانفعال
الشعوري « الجانب الأكثر غموضاً في الانسان » والتي تنسى بأن ما هو مضاد لا
يتفهم لهذا السبب أن يكون في خدمة التفسير . ولا يمكن لنا أيضاً إلا أن نُسَرَّ
لبروية ليقي شقراوس بعيداً عن الترابطية التي ما زالت حية للأسف في بعض
الأوساط : « والذي يُفسّر قوانين الترابط هو منطق التقابلات والارتباطات ،
الاستعدادات والانتماءات ، الإنجابات والتضادات لا العكس : ويجب على الترابطية
المجددة أن تتأسس على نظام عمليات مشابهة لجبر بول *Algèbre de Boole*
ص ١٣٠) . لكن إذا امكن هكذا ، رؤية « سلسلة ارتباطات منطقية لجمع

(١) « إن البنيات التطورية والتزامنة توجد فعلاً وقلوباً » في كتاب :
(1962) Sens et usages du terme Structure .

العلاقات الفعلية ، (ص ١١٦) ، وإذا كان المنهج النهائي ، في جميع المجالات ، يقوم على إعادة دمج المضمون بالشكل ، (ص ١٢٣) فإن المسألة تبقى في تنسيق البنيوية الاجتماعية أو الانتروبولوجية ، عاجلاً أم آجلاً ، مع البنيويات البيولوجية والنفسية التي لا تستطيع أن تتغلب عن الطابع الوظيفي على أي مستوى كان .

بما يخص البنيات المستمدة من قبل ليفي شتراوس ، يعلم كل واحد أنه يمكن بالإضافة إلى البنيات اللغوية وحسب الوسورية عامة ، من إيجاد البنيات الجبرية من نوع الشبكات ومجموعات التحويلات والنم . . . في مختلف نظم القرابة واستطاع تشكيلها بمعاونة رياضيين مثل أ. وايل ، وج. ت. جيلبو . لا تنطبق هذه البنيات على القرابة فقط : بل يمكن العثور عليها في انتقال من تصنيف إلى آخر ومن أسطورة إلى أخرى ، وباختصار ، في جميع التطبيقات أو النتائج المعروفة للمضاربات المدرسية .

ويسمح نصان أساسيان فهم المعنى الذي اعطاه ليفي شتراوس لبنياته في تفسير انتروبولوجي كهذا :

إذا كان النشاط اللاواعي للذهن يشتمل على فرض الأشكال على المضمون ، مثلاً نعتقد نحن ، وإذا كانت أساساً هذه الأشكال هي نفسها لجميع الأذهان ، القديمة والحديثة ، البدائية والمتقدمة - كما تبينه دراسة للوظيفة الرمزية بكثير من الوضوح في تعبيرها عن نفسها عبر الكلام - فيجب ويكفي الوصول إلى البنية غير المتوعية الكامنة تحت كل مؤسسة وتحت كل تقليد وذلك للحصول على مبدأ للتفسير يصبح لمؤسسات أخرى وتقاليد أخرى ، شرط أن ندفع بالتحليل بعيداً ، وهذا أمر طبيعي ، (الانتروبولوجيا البنائية - ص ٢٨) .

لكن هذا الذهن الانساني الثابت أو « النشاط اللاواعي للذهن » يحتل في فكر ليفي شتراوس موقفاً محدداً ، ليس هو بفطرية شومسكي ولا هو بالأخص « التجربة المباشرة » التي من المفروض التغلب عنها « مع احتمال إعادة دمجها في تركيب موضوعي بعد ذلك » من كتاب : *tristes tropiques* (ص ٥٠) بل أنه

نظام من التصورات محصور بين البنيات التحتية والبنيات الفوقية : « غالباً ما عقلت الماركسية - إن لم يكن ماركس نفسه - كما لو أن التطبيقات تنتج مباشرة عن الممارسة. وتمدّد، دون التعرّض إلى الأوليّة الأكيدة للبنية التحتية، بأنه يندرج دائماً بين الممارسة والتطبيق وسيط بشكل البنية التصورية التي بفضل عمليتها، تكتمل المادة والشكل اللذان حرّما من وجود مستقل أي على غرار كائنات تجريبية ومعقولة في آن معاً. وستقتصر مساهمتنا على هذه النظرية للبنيات الفوقية التي لمح إليها ماركس، عاهدين إلى التاريخ - تماونه في ذلك الديموغرافيا والتكنولوجيا والجغرافيا التاريخية والأتوغرافيا - امر تطوير دراسة البنيات التحتية، بحصر المعنى، التي لا يمكن لها أن تكون دراستنا الأساسية نحن، ذلك أن الاتولوجيا هي، قبل أي شيء، علم نفس » (la pensée sauvage من ١٧٣ - ١٧٤) .

تصبح المسألة الرئيسية التي يثيرها هذا المذهب الواسع، وذلك بعد أن نكون قد سلّمنا بوجود البنيات التي لا تختلط إذاً، رغم (العالم الأتوغرافي الانكلو - سكسوني رادكليف براون الذي كان أكثر من تقرب منها) مع نظام التفاعلات الملحوظة، هي مسألة فهم ماهية هذا « الوجود ». وليس هذا الوجود مطلقاً، وجوداً شكلياً عائد للمنظر الذي يرتب تمازجه من تلقاء إرادته، إذ توجد هذه البنيات خارجاً عن تلك الإرادة ولشكل مصدر العلاقات المكتشفة، إلى درجة تمعدّمها البنية، دون هذا التوافق الوثيق مع الوقائع، كل قيمة حقيقية. كما أن البنيات ليست « جواهر » صورية ذلك أن ليفي شتراوس ليس فينومينولوجياً ولا يؤمن بالمدلول الأولي لـ « الآثا » أو لـ « التجربة المباشرة ». أما الصيغ التي تعاود بلا انقطاع فهي إنما تصدر عن « العقل » أو عن عقل إنساني بمائيل دوماً لنفسه، ومن هنا أوليتها على العامل الاجتماعي (على عكس « أولية العامل الاجتماعي على العقل » الذي ينتعده عند دركايم) وعلى العامل العقلي (ومن هنا التسلسلات المنطقية التي تربط فيما بين العلاقات العقلية) وبالأحرى على الجهاز العضوي Organisme الذي يفترض به بحق تفسير الانفعال الشعوري ولكنّه

ليس مصدر البنيات) . غير ان المسألة تزداد حدة : ما هو غلط وجود العقل او الذهن ان لم يكن اجتماعياً او عقلياً او عضوياً ؟ .

ان تترك المسألة دون جواب فهذا يعود للحديث عن بنيات طبيعية لا أكثر لكنها تذكرنا ، وبكل غضب ، بـ « الحق الطبيعي » الخ ... والحال انه بالامكان تبيان الجواب . فاذا كان من الضروري اعادة دمج المضامين بالاشكال ، كما يقول صراحة ليفي شتراوس ، فليس اقل ضرورة التذكير بأنه لا يوجد ، بالمعنى المطلق ، لا اشكال ولا مضامين ، بل أي شكل في الواقع كما في الرياضيات ، هو مضمون للاشكال التي تشمل ، وأي مضمون هو شكل للمضامين التي يحوي . غير ان هذا لا يعني (كما رأينا في الفقرة ٨) بأن كل شيء يكون « بنية ») ويبقى أن نفهم كيفية الانتقال من هذه الشمولية للاشكال الى وجود البنيات الأكثر تحديداً لأنها محدودة أكثر .

يجب التحقق أولاً من أنه إذا كان ، من هذا المنظور ، كل شيء قابلاً للبنيّة فلن نوافق إذا البنيات بالإضافة الى ذلك سوى بعض « اشكال » بين أخرى خاضعة للمعارات المجردة لكنها قابلة خصوصاً لأن تتشعب جلات لها قوانينها بما هي قوانين نظام ، وتفرض هذه القوانين بالتحويلات وبالأخص تؤمن للبنية استقلالها وضبطها الذاتي ولكن كيف تتوصل « اشكال » ما إلى أن تنتظم بهذه الطريقة على شكل بنيات ؟ عندما يتعلق الامر بالبنيات المجردة للعلم المنطقي Logicien او للرياضي ، فإن هذه الأخيرة هي التي تستخرج البنيات من الاشكال . غير انه في الواقع يوجد سياق تكويني عام ينقل من الاشكال الى البنيات ويؤمن الضبط الذاتي للملازم لها : وسياق الموازنة هو الذي يحدد ، في المجال الفيزيائي ، موقع نظام من مجموع اعماله الافتراضية Virtuels (راجع الفقرة ٩) ، وهو الذي يؤمن ، في المجال المعنوي ، الـ Homéostasies من جميع المستويات للكائن الحي (راجع الفقرة ١٠) وهو الذي يتحقق في المجال النفسي من تطور الذكاء (راجع الفقرة ١٢ - ١٣) وهو الذي في المجال

الاجتماعي يمكنه تأدية خدمات مماثلة . وبالفعل إذا تذكرنا بأن كل شكل توازني يضم نظام تحويلات افتراضية تشكل فريقياً ، إذا ميزنا حالات التوازن والموازنة كسياق ينزع نحو هذه الحالات ، فيحلل هذا السياق ليس فقط الانتظامات التي تتبع مراحلها ، بل أيضاً شكلها النهائي أي التقابلية العملية . ونحوي إذن موازنة الوظائف المعرفية أو العملية على كل ما هو ضروري لتفسير التصورات ، العقلانية : نظام تحويلات مضبوط ، وافتتاح على الممكن ، أي شرطي الانتقال من التكوين الزمني la formation temporelle إلى الرباطات اللازمة interconnexions intemporelles .

ولا تعد المشكلة من هذا المظهر مشكلة تقرير ما إذا كانت الأولية (أو السابقة) للعامل الاجتماعي على العامل العقلي ، بل العكس العقل الجماعي هو العامل الاجتماعي الموازن بفضل لعبة العمليات التي تتدخل في جميع الـ co-opérations . وكذلك فإن الذكاء لا يسبق الحياة العقلية ولا ينحدر منها ك مجرد ناتج بين آخرين : أنه شكل التوازن لجميع الوظائف المعرفية - تقدر العلاقات بين العقل والحياة العضوية من طبيعة واحدة . فإذا كان لا يمكن القول بأن أي سياق حيوي هو سياق « معقل » ، فيمكن الأخذ بأن الحياة ، في التحويلات التشكلية morphologiques التي سبق أن درسها آرسى تومسون (Growth and form) منذ زمن وهو مؤلف أفر في ليفي شتراوس مثل دراسته عن علم المعادن) هي حياة هندسية ، ونستطيع ان نذهب اليوم في التأكيد بأنه يعمل ، في نقاط عديدة جداً مثل آلة أحيائية Machine Cybernétique أو ذكاء اصطناعي . لكن من هذا المنظور ماذا يصبح العقل الانساني المماثل لنفسه دائماً ، يقول ليفي شتراوس : ليكن البرهان استمرارية والوظيفة الرمزية ؟ ونسترف بأننا لم نفهم جيداً ما الذي 'يبقي هذا ' العقل esprit « أفضل تمزجاً إذا جعلنا منه مجموعة تصورات دائمة عوضاً عن نتاج مستمر لبناء ذاتي متواصل . ألا يمكن في حال اكتفائنا بالوظيفة الرمزية ، مع القبول بالتميز السوسوري للشارة والرمزية du signe et du symbole (وهو تصنيف يبدو لنا أعمق

من تصنيف بيرس^(١) ، بأن تفكر بوجود تطور من الرمز المجازي الى الشارة التحليلية ؟ هذا هو معنى مقطع لروسو حول الاستعمال البدائي للاستعارات tropes يذكره ليفي شتراوس، مع الموافقة عليه، في سياق كلامه عن الشكل الأولي للفكر الاستدلالي *pensée discursive* : إلا أن كلمة « أولي » تستتبع تكة أو على الأقل مستويات ؛ ولو أن « الفكر الهمجي » ما زال حاضراً بيننا، تشكل مستوى أدنى من مستوى « الفكر العلمي » : والحال أن المستويات المتدرجة تستتبع مراحل في التكوين. ويمكن أن تتداخل خاصة عما إذا لم تكن « التصنيفات البدائية » الجملة التي يتكلم عنها ليفي شتراوس في « الفكر الهمجي » نتاجاً « لتطبيقات » بدلاً من تكتلات بالمعنى العملي (راجع الفقرة ١٢) .

اما بما يختص بمجموع هذا المنطق الطبيعي فالتأني في فهم التمارض المبني العام بين بنوية ليفي شتراوس ووضعية ليفي برول . ويبدو ان هذا الأخير قد تقلص كثيراً بعد وفاته كما تقلصت أعماله الأساسية : لا يوجد « عقلية بدائية » لكن ربما يوجد قبل منطقية بمعنى مستوى سبق عملي أو مستوى محدوداً في بدايات العمليات المحسوسة فقط (راجع الفقرة ١٢) . والمشاركة مفهوم مفيد جداً شرط ان نرى فيها ليس صلة وهمية لاتأخذ بعين الاعتبار التناقض والتوافق ، بل علاقة تكثر عند الطفل الصغير ، وتبقى في منتصف الطريق بين العالم والفردي : *ombre* الذي نقيمه على الطاولة ليس ، في حوالي الاربع والخمس سنوات ، سوى « طفل ما تحت الاشجار » أو ظل الليل ، وذلك ليس بسبب تفهمين في فئة عامة ولا حتى بسبب نقل حيزي مباشر (رغم ما يقوله الشخص) ، لكن بفضل التهام فوري بين اشياء « تفصل » فيما بعد ثم « تجتمع » في فئة ، وذلك بعد ان يفهم القانون . وحتى اذا لم نرى في المشاركة إلا « فكراً

(١) ييز سوسر ما بين *Indice* (وهو سببياً من نوع الدلول) ، الرمز (للسبب) والشارة (الاحتمالية) ، وهذه الأخيرة ايجابية بالضرورة لأنها اصطلاحية ، بينما يمكن الرمز أن يكون فردياً (في الاسلام الخ ...) . كان بيرس يقابل *indice* بالأيقونة (الصورة) والرمز (الشارة لكنها مرتبطة بالشيئين الأولين) راجع الفقرة ١٤ .

pensée analogique فإن لها فائدتها بما هي قبل منطقية وذلك في المتعنين :
معنى سابق للمنطق الواضح ومعنى التحضير لبلورته .

وتظهر ، دون شك ، أنظمة للقرابة التي وصفها ليفي شتراوس بتنطق أكثر
تماسكاً . لكن من البديهي ، وخاصة بالنسبة للعلم الأنتوغرافي ان لا تكون
نتيجة اختراعات فردية (لفيلسوف الهي) تايانور ، ولم يجعلها ممكنة سوى
بلورة جماعية طويلة . إذا المقصود مؤسسات ، وهكذا فإن المسألة هي نفس
المسألة التي طرحنا للبنى اللغوية التي تفوق قدرتها قدرة معدل المتكلمين^(١) .
وإذا كانت مفاهيم الانتظام الذاتي او الموازنة الجماعية تقدم أدنى معنى ، فمن
الواضح بان الرجوع الى النتائج الثقافية المبلورة لا يكفي للحكم على منطق أو
بمنطق اعضاء مجتمع معين : وتعدو المشكلة الحقيقية مشكلة استعمال مجموع
هذه الادوات الجماعية في طرق التفكير المتداولة لحياة كل واحد . غير انه يمكن
ان تكون هذه الادوات من مستوى يفوق بشكل ملموس مستوى هذا المنطق
اليومي . يذكرنا ليفي شتراوس بحالات حيث يحسب الهنود بدقة العلاقات
المفروضة في نظام قرابة ما^(٢) . غير ان ذلك لا يكفي ، لان هذا النظام قد
انتهى ، وهو مضبوط قبلاً وذا مستوى متخصص ، بينما لو ان نشهد اختراعات
فردية . ونعتقد إذا من جهتنا ان المسألة تبقى مطروحة طالما لم يتم بطريقة
منهجية بابحاث دقيقة حول المستوى العملي (بالمعنى الذي ورد في الفقرة ١٢)
لكبار والأطفال مجتمعات متنوعة .

غير انه يصعب القيام بهذه الابحاث لانها تفترض تكويناً نفسياً جيداً حول
تقنيات المحصل العملي مع حوار حر وليس يتوحد للنمو حسب طريقة الروايز
tests ، ولا يمتلك جميع علماء النفس مثل هذا التكوين) ، وتفترض ايضاً
معلومات أنتوغرافية كافية واتقان تام للغة الاشخاص . واننا لا نعرف سوى

(١) لا نطعن بنهات مؤرخة térmitière بشكل مشابه عما هي عليه هندسة التارخات
في اوضاع اخرى .

(٢) هندي أميريم الذي وصفه ديكون س ٣٣٢

محاولات قليلة من هذا النوع وقد اقيمت احدها حول « الأروتيس » الاستراليين الشهيرين، والنتيجة : تأخر منهجي في تكوين مفاهيم بقاء لنفس الكمية (بقاء كمية من سائل نقلت الى اثناءات مختلفة الاشكال)، لكن مع اكتساب طبعاً ، مما قد يظهر في حالات خاصة إمكانية الوصول الى أول درجات مستوى العمليات المحسوسة قد يبقى هنا فحوص العمليات الافتراضية (التركيبية ... الخ ...) وبالاخص لدراسة مجتمعات كثيرة اخرى في وجهات النظر هذه .

أما بما يخص الطابع الوظيفي للبنىات فيبدو صعباً غرض النظر عنها طالما سلمنا يحانب من البناء الذاتي . إذا كانت عوامل الفائدة لا تقصر وحدها تكويناً بشيوياً فإنها تثير بعضاً من المسائل التي يقدم هذا التكوين جواباً عليها وتقرب بالتالي ما بين للتكوين والجواب « راجع الفقرة ١٠ حول أفكار ودفنوتون » . ومن جهة أخرى يكثّر أن تغير بنية ما وظيفتها حسب الحاجات الجديدة التي تطرأ على المجتمع .

وبكلمة ، لا تؤدي أي من هذه الملاحظات التي سبقت الى التشكيك في الجوانب الإيجابية ، أي البنائية خاصة من تعاليل ليفي شتراوس؛ فهي لا تهدف إلا الى إخراجها من انزالها الساطع . لأنه إذا تركّز فوراً في حالات الانحياز ، فإننا نأسي الميزات ، وقد تكون هذه الميزات الأكثر خصوصية من النشاط الإنساني وحتى في جوانب المعرفة : توصل الانسان ، على خلاف كثير من الأجناس الحيوانية التي لا يمكن لها ان تتغير الا بتغيير جنسها ، الى تحويل نفسه بتحويل العالم والى بنية نفسه عبر بناء البنيات دون ان يتلقاها من الخارج ولا من الداخل يقتضى قدر لا زمني *prédestination intemporelle* . ليس تاريخ الذكاء « بقائمة عناصر » ، انه مجموعة تحويلات لا تختلط مع تحويلات الثقافة ولا مع تحويلات الوظيفة الرمزية ، لكنها بدأت قبلها بكثير وأولتها ، واذا كان للعقل لا يتطور دون سبب لكن يقتضى ضرورات داخلية تفرض نفسها بالتتابع مع تفاعلاتها مع البيئة الخارجية ، فقد تطورت ، بعد كل حساب ، من الحيوان الإنساني الى اتولوجيا ليفي شتراوس البنيوية .

٢٠ - البنوية والديالكتيك . - لن تعرض بالبحث في هذا الفصل إلا مسألتين عامتين أميرة بمناسبة الأبحاث البنوية .

وكان يمكننا إطالة اللائحة إلى ما لا نهاية ، لأن الموضة ما ان استولت عليها حتى لم يعد هناك فيلسوف جديد إلا وتيمها ، والتجديد الذي أتت به الموضة يفسى قدم الطريقة في ميدان العلوم المهمة بسهولة في بعض الفلسفات .

١ - والمسألة الأولى من مسألتينا الاثنتين تعرض نفسها بالتأكيد ، لأننا ، بمقدار ما تتعلق بالبنية ، بتخفيضنا قيمة الأصل والتاريخ والوظيفة ، عندما لا يكون نشاط الشخص نفسه ، بمقدار ما ندخل عندئذ بدسياً ، في صراع مع الميول الأساسية للفكر الديالكتيكي . فمن الطيبي إذا ، والمفيد كثيراً بالنسبة إلينا أن نرى ليفي شتراوس يكرس هذا الفصل الأخير من كتابه « الفكر المجعي la pensée sauvage » لمناقشة كتاب « نقد الفكر الديالكتيكي » لجان بول سارتر . ويبدو ضرورياً هنا استعراض هذا النقاش نظراً لأن محركيه الاثنتين ، يبدو أنها ليسا حقيقة أساسية ، إلا وهي أن البنوية كانت دائماً متضامنة مع بنائية constructivisme لن نستطيع أن نرفض ميزتها الديالكتيكية ، مع كل ما تحمله هذه الميزة من الإشارات المميزة للتطورات التاريخية ، لمعارضة الأضداد « وللتجاوزات » ، بصرف النظر عن فكرة الجملة المشتركة بين الميول الموصوفة

بأنها دياكتيكية بقدر ما تكون بنوية . وتشكل النظرية البنائية ولازمتها النظرية التاريخية ، اللتان يستعملها سارتر في أبحاثه ، المركبات الأساسية لفكر الديالكتيكي . بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة يشير ليفي شتراوس ، إلى جانب تقدم العلم للتاريخ الذي تكلمنا عنه ، إلى الصعوبات التي توجد في فكر سارتر الذي يتركز على « الأنا » أو على « النحن » بأنه مجرد « أنا » من القوة الثانية . وهذا الأنا منفلق بدوره بإحكام على « أنوات » (جمع أنا) أخرى (الفكر الجمعي) . ولكن هذه الأفكار عند سارتر لا تشكل نتائج دياكتيكية ، بل بقايا وجودية لم تستطع دياكتيك بقيت فلسفية ، أن تحيها ، بينما يؤدي سياق الصياغة الديالكتيكية بالمعكس ، إلى الوضع ضمن تبادلية للنظرات في ميدان الفكر العلمي . أما فيما يتعلق بالبنوية ، فسندافع عنها ضد اعتراضات ليفي شتراوس ، ولكن بشرط أساسي هو أن سارتر (ما عدا بعض الاستثناءات) يعتبر أن البنوية تشكل وفقاً على الفكر الفلسفي لأنها متميزة عن المعرفة العلمية ولأنها تعطي عن هذه الأخيرة صورة مستمرة ، تقريباً بشكل شبه كلي ، من النظرية الوضعية ومن طريقتها « التحليلية » .

ولكن ليس فقط أن الوضعية ليست العلم الذي تعطينا عنه صورة مشوهة قطعاً ، ولكن الوضعيين في الفلسفة ، كما حدد ذلك مبرسون ، غالباً ما يحصرون هذا الاعتقاد بتصريحات الإيمان المروضة في توطئاتهم ، ويعملون غالباً بمعكس ما تنادي به هذه العقيدة ، وذلك ما أن يوسعوا تحاليلهم الاختبارية ونظرياتهم التفسيرية : أن تنهمم بنقص الوعي أو بالنظرية الملومية شيء ، وأن تمثل عملهم بالوضعية فذلك شيء آخر .

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى نجد أن الروابط التي أثبت وجودها شتراوس بين العقل الديالكتيكي والفكر العلمي تبقى على درجة مقلقة من التواضع بالنظر إلى متطلبات الفكر العلمي ، ولجبرتنا هذه الروابط أن نعيد إلى السياقات الديالكتيكية دوراً لم تكن تحلم به . زد على ذلك أنه يبدو واضحاً ،

أنه إذا كان ليفي شراوس لم يقدّر هذه السياقات حق قدرها ، فهذا راجع إلى ميزة بنيويته الجامدة نسبياً وغير التاريخية والتي ليست لصالح ميول البنيوية بشكل عام .

إذا فهمنا ذلك جيداً فإن ليفي شراوس يجعل من العقل الديالكتيكي عقلاً « مركباً دائماً » (الفكر المسجى) ، ولكن بمعنى « شجاع » أي يبني الجسور ويتقدم بعكس العقل التحليلي الذي يفصل لكي يفهم وبالأخص لكي يراقب .

ولا نكون قد شدّدنا على الكلمات إذا قلنا ان هذه التكاملية (العقل الديالكتيكي ليس فقط العقل التحليلي بل شيئاً أكثر من ذلك) تجعلنا نلتحق بإحدى الوظائف ، وظائف الاختراع أو التقدم التي تنقص هذه الأخيرة خصصين لها الضروري من التحقيق . وبطبيعة الحال ، فهذا التفريق ضروري ، ومن الطبيعي أيضاً أنه لا يوجد عقلان بل وضمان أو نوعان من « الطرق » (بالمعنى الكارترتي للكلمة) يمكن أن يتبناهما العقل . ولكن البناء الذي يتطلب الموقف الديالكتيكي لا يقوم فقط على « بناء الجسور » على هاوية جهلنا هذه الهاوية التي يبعد طرفها الآخر دائماً : هذا البناء يتطلب أكثر لأنه غالباً ما يولد بنفسه النقي المتفق مع الإيجاب لكي يعود فيجد التماسك في تجاوز مشترك . هذا النموذج الهيفلي أو الكانطلي ليس مجرد نموذج مجرد أو تصوري محض وإلا فإنه لا يثير اهتمام العلم ولا البنيوية ، انه يحدد طريقاً محتوماً للفكر ما ان يحاول هذا الفكر الابتعاد عن الخطأ المجرّد . في ميدان البنّيات يناسب هذا النموذج سياقاً تاريخياً يتكرر من دون انقطاع وقد وصفه باشلارد ، في أحد أهم كتبه ، فلسفة اللا philosophie du non والمبدأ يرتكز على الفكرة التالية : يجب أن ننفي إحدى ميزات البنية إذا كانت هذه الميزة أساسية أو على الأقل ضرورية ، إذا كنا قد أتمينا بناء هذه البنية . مثلاً على ذلك بما أن الجبر التقليدي هو جبر تبادلي فقد بنيت منذ هاملتون علوم الجبر ليست تبادلية ، كما أضيف إلى الهندسة الاقليدية هندسات غير أقليدية ، وكل المنطق المزدوج الذي يرتكز على

الـ tiers-exclu يعلم للمنطق متعددة الفعالية عندما نقى « بروبر » قيمة هذا المبدأ في حالة المجموعات اللامتناهية ... للنخ.

وفي ميدان البنيات المنطقية الرياضية ، فقد أصبح من الطرق المتبعة ، إذا انطلقنا من بنية معروفة ، أن نبحث عن نظام نقى. نبنى بواسطته نظاماً مكملاً أو مختلفاً نستطيع بعد ذلك جمعه في بنية مركبة شاملة. ولم يبق إلا أن ننفي التفي نفسه كما فعل «غريس» في كتابه « المنطق بدون نقى ». ومن ناحية أخرى عندما يطلب منا أن نحدد إذا كان النظاماً - يحير النظام - بـ«والعكس» كما في العلاقات بين الأعداد الترتيبية أو الأعداد الأصلية بين التصور والحكم ، يمكننا أن نتأكد أن وراء الأسبقيات أو التدرجات الخطية ، سيأتي دور التفاعلات أو الدوائر الديالككتيكية .

وبالرغم أن هذا الموقف يشتق مما كان يسميه كانط « التناقضات الحقيقية » أو الواقعية ، يمكننا أن نجد في ميدان العلوم الفيزيائية والبيولوجية موقفاً مقارناً: هل يجب أن نذكر بالتأرجحات بين المفهومين « المفهوم الجسيمي corpusculaire » والمفهوم التموجي ondulatoire لنظريات الضوء ، أو نذكر بالتبادلات بين السياقات الكهربائية والمغناطيسية التي قدمها « ماكسويل » في هذه الميادين كما في ميادين البنيات المجردة ؟ يبدو واضحاً أن الموقف الديالككتيكي يشكل مظهراً أساسياً لإعداد البنيات ، مظهراً تكاملياً وغير منفصل حتى عن التحليل التعقيدي في نفس الوقت . وهذا الشيء الزائد الذي يمنحه إياه ليفي شتراوس ببخل ، يقوم على أكثر من وضع الجسور ، ويعود بلا شك إلى إبدال التماذج الخطية بمجاور فيما يتعلق بالوالب أو بالحلقات غير المفرغة القريبة الصلة بالدوائر الوراثة أو التفاعلات الخاصة بسياقات التطور .

٢ - هذا يعيدنا إلى مسألة التاريخ وإلى الطريقة البنوية التي حلل بها «التومبير» ومن ثم «غودلييه» أعمال كارل ماركس بالرغم من الدور الذي يعطيه للتطور

التاريخي في تحليلاته الاجتماعية . ومضلا على ذلك ، اذا كان هنالك مظهر بنيوي عند ماركس ، فانه يؤدي على الأقل الى نصف الطريق مما سميتاه «البنيات الشاملة» (في الفقرة ١٨) وما يشكل البنيات بالمعنى الانثروبولوجي الحديث . وهذا بدعي لأنه يفصل بين البنيات التحتية وبين البنيات القوقية الايدولوجية ، ويصف الاولى بكلمات واضحة مع كونها وصفية قادرة على حملنا بعيداً عن العلاقات الظاهرية .

والهدفين الشرعيين اللذان يضعهما «التوسير» نصب أعينه في مؤلفاته التي تشكل علومية للماركسية هما : استخلاص الديالكتيكية الماركسية من ديالكتيكية هيغل وإعطاء الاولى شكلاً بنيوياً عسرياً .

بالنسبة للنقطة الاولى يعطينا « التوسير » ملاحظتين هامتين (يستخلص منها نتيجة ان نستطيع أن نعلّق عليها ، وتعلّق بالميزة القابضة المناقشة لفضية الهيغلية عند ماركس الشاب الذي يُقدّر أنه قد انطلق على الأرجح من مسألة مستوحاة من كانط وحق من فيخت Fichte) .

الملاحظة الأولى تتضامن مع الثانية وتقضي بأنه بالنسبة للماركسية وبمكس المثالية ، يعتبر الفكر انتاجاً production ، أي نوعاً من الممارسة النظرية pratique théorique والذي لا يشكل عملاً فردياً بقدر ما يشكل نتيجة تفاعلات ضمنية حيث تدخل العوامل الاجتماعية والتاريخية ؛ ومن هنا تفسير هذا المقطع المشهور لماركس حيث تعتبر «الجملة الحسية» بالحقيقة إنتاجاً للتفكير وللتصور . اما الملاحظة الثانية التي سناخذها من «التوسير» فنقول بأن التناقض الديالكتيكي عند ماركس لا يتعلق مطلقاً بالتناقض الديالكتيكي عند هيغل الذي يقتصر بالنهاية على تطابق بين الأضداد .

هذا التطابق هو نتيجة « لتحديد تضافري » surdétermination ، أي إذا قمنا جيداً ، هو نتيجة لعبة من التفاعلات غير المنفصلة . كما يبين « التوسير » ، بجملة قوية ، الفرق بين مفهومي الجملة عند ماركس وعند هيغل .

عند ذلك أدى هذا التحدد التضافري الذي يبادل على الصعيد الاجتماعي بعض أشغال المبنية في الفيزياء، أدى «بالتوسير» إلى إدراج التناقضات الداخلية لملاقات الانتاج أو التناقضات بين هذه العلاقات وبين قوى الانتاج ، وبطريقة أعم إدراج كل الجهاز الاقتصادي الماركسي ضمن نظام من البنيات التحويلية ، يحاول جامداً إعطاءه الفصلات ومبادئ، التعقيد .

وقد اتُخذ «التوسير» لشكلته ، غير أن ذلك يشكل لوماً شائعاً من غير أساس يُوجّه عادة لكل بنوية مجردة . وقد عورض التوسير فيما ظهر لبعضه وكأنه تقدير بأقل من الحقيقة ، للموضوع الإنساني . ولكن إذا تمسكنا بقم «الشخص» (التي تجانب في بعض الوقت للأسف الأنا الشخصي) أقل مما تتمسك بالشايطات البناء للفعل والموضوع المألومي فإن تحديد المعرفة كإنتاج ، يتطابق مع أحد تقاليد الماركسية الأكثر صلابة . أما فيما يتعلق بالعلاقات بين البنيات والتحويلات التاريخية ، يبين غودلييه في ملاحظة شديدة الوضوح^(١) العمل الذي بقي علينا إعطاؤه: إذا قارنا البنيات الاجتماعية بالفئات (بمجموعات أشياء وصلات ممكنة بينها) (راجع آخر الفقرة ٦) يمكننا أن نحدد ما هي الوظائف المسموعة أو غير المتفقة مع البنية . ولكن يبقى فيما يتعلق بمجموعة البنيات التي تشكل نظاماً ، أن نفهم كيف أن ظرف الربط بين البنيات «تحت» داخل إحدى البنيات المرتبطة وظيفية مسيطرة » ، ويبقى التحليل البنوي ضمن هذا الاعتبار ، بحاجة إلى الإتيان ولكن بملاقة ضيقة مع التحويلات التاريخية والوراثية . صحيح أن غودلييه (الذي أكمل بشكل رائع تحليل «التوسير» المتعة بالتناقض عند ماركس) يشير ضمن هذا الاعتبار إلى «أسبقية دراسة البنيات على نشأتها وعلى تطورها» ، ويلاحظ أن ماركس نفسه اتبع هذه الطريقة بتحديد نظرية القيمة في أول كتاب «رأس المال» . زد على ذلك أننا رأينا في الفقرتين (١٢ و ١٣) أنه ، حتى في الميدان النفسي الوراثي،

(١) Godelier. Système, Structure et contradiction dans le capital

لا يعتبر الأصل إلا مروراً من بنية إلى بنية أخرى بالإضافة إلى أن هذا المرور يفسر الأخرى كما أن معرفة الاثنين ضرورية لفهم المرور عندما نعتبره تحويلاً.

ولكن ذلك يؤدي إلى تتبع من المفيد ذكرها ، لأنها تلخص اعتراضاتنا على ليقي شراوس أكثر مما تلخصها الأفكار العامة في هذا المؤلف بكامله .

« يصبح من المستحيل تقديم الأنثروبولوجيا كتعدد للتاريخ ، أو تقديم التاريخ كتعدد للأنثروبولوجيا ، المقابلة بلا طائل بين علم النفس وعلم الاجتماع أو بين علم الاجتماع والتاريخ. وبالنسبة تركيز إمكانية العلوم الإنسانية على إمكانية اكتشاف قوانين العمل والتطور والاتصال الداخلي للبنى الاجتماعية ، وبالتالي تركيز على تصميم طريقة التحليل البنوية التي أصبحت قادرة على تفسير شروط التغير والتطور للبنى ولوظائفها » (ص ٨٦٤) . البنية والوظيفة ، الأصل والتاريخ ، للشخص الفرد والمجتمع ، كل هذه المفاهيم تصبح عندئذ غير منفصلة في بنوية هذا مفهومها وذلك بقدر ما تتقن أدواتها التحليلية .

بنوية دون بنويات . — يقدم لنا كتاب « فوكو » ، « الكلمات والأشياء » les mots et les choses ، بالمعكس ، مثلاً مدهشاً لعمل ذا أساليب براق يمتلئ بالأفكار غير المتوقعة اللامعة ويدل عن معرفة عميقة (مدهشة بشكل خاص فيما يتعلق بتاريخ البيولوجيا ويدون مرادف فيما يتعلق بتاريخ علم النفس) ولكنه لا يعمل من البنوية المألوفة إلا بعض الظواهر السلبية من دون أن نستطيع أن نميز في كتابه « أزمات العلوم الإنسانية » شيء إلا البحث عن غايات مثالية تصورية مرتبطة بشكل خالص بالآلة . يحدد Foucault بشكل خاص على الإنسان ويصير العلوم الإنسانية مجرد نتيجة وقتية لهذه التطورات (التاريخية أولاً) أو العلوم التي تتلاحق بدون ترتيب عبر الزمن ، وبالقفل ، هذه الدراسة العلمية التي نشأت في القرن التاسع عشر ، سوف تختفي بمئة جبهة من دون أن تتمكن من التوسع ما هي النوعية العلمية الجديدة التي سستبدلها .

أحد أسباب هذا الخوف القريب يبحث عنه «فوكو» بفرضه في البنيوية نفسها التي تفتح على الامكانيات نفسها، وعلى عملية تطوير العقل التجريبي لتقديم بواسطة إنشاء لغات شكلية وممارسة نقدية فإن العقل الصافي انطلاقاً من أشكال جديدة «الأولية الرياضية». وبالفعل إذاً عمينا قدرات اللغة نفسها في لعبة الإمكانيات الممتدة إلى نقطتها القصوى فالذي يظهر هو أن الإنسان «منتهي»، «وببلوغه قمة كل عبارة ممكنة لا يصل إلى قلبه بل إلى الحافة التي تحده: في هذه المنطقة حيث يحول الموت، حيث يتغير الفكر ويتراجع وعُدُّ الاجل لا نهائياً. (ص ٣٩٤ - ٣٩٥). ومع ذلك لا تشكل البنيوية طريقة جديدة؛ إنها الضمير الواعي والقلق العلم الحديث.

إن الخدمة الخاصة التي يقدمها المومبون الشاكرون هي إثارة مسائل جديدة بزعزعتهم أوضاع الرخاء. نأمل إذاً أن يركز Foucault بحجته «كانط جديد» يمحلتنا في استقامة ثانية من ركوده الدغماتي. ننتظر بشكل خاص من العمل الذي يتوخى الثورية، الذي يقدمه لنا هذا المؤلف، نقداً خلاصاً لعلوم الإنسان وإيضاحات كافية للمفهوم الجديد للعلمية، وتبرير للتصور المحدد الذي يطمح للبنيوية. بهذه النقاط الثلاثة نبقى على جوعنا لأننا لن نجد تحت هذه القدرة القائمة على التقديم سوى عدة تأكيدات أو إسقاطات. وعلى القارئ أن يعني بإيجاد البراهين بتنفيذ التقريرات كما يستطيع.

لا تشكل العلوم الإنسانية مثلاً «علومًا خاطئة» فحسب، بل إنها لا تشكل علوماً مطلقاً، والشكل الظاهري، الذي يحدد وضيمتها ويترسها في العلمية الحديثة، يضمها في نفس الوقت خارج التحديد الذي يعطها علوماً. وإذا سألنا عندئذ لماذا سميت بهذا الاسم، يكتفى بالتذكير بأنها تنتمي إلى التحديد الأثري لتجذرهما وبأنها تدعو وتستقبل الانتقال من نماذج مستعارة إلى علوم.

إذا طالبنا الآن ببراهين هذه التأكيدات غير المتوقعة لن نجد إلا البراهين التالية:

١ - الشكل الظاهري الذي يحدد وضميتها هو ثلاثي السطوح trièdre الذي اخترعه فوكو ، أما أبعاد الثلاثة فهي :

أ - للعلوم الرياضية والفيزيائية :

ب - البيولوجيا والإقتصاد والعلوم القوية التي لا تشكل علوماً إنسانية .

ج - التفكير الفلسفي .

٢ - بما أن العلوم الانسانية لا تدخل في الفقرات أ، ب ، ج لا يمكن لهذه إذاً أن تكون علوماً (هذا ما أردنا برهانه) .

٣ - أما إذا أردنا أن نعلم لماذا تعتبر كذلك ، فإن التحديد الأخرى لجذريتها يفسر هذا الاعتبار بسهولة ، لأن تحديدات فوكو الأخرى ، تعود إلى الحديث بعد ذلك عما جرى ، وكان ذلك كان يمكن أن يستنتج أولاً من معرفة علوميتها ، لأن التاريخ يبرهن أن كل ما هو مفكر به سيقى يفكر به بواسطة فكرة لم تخلق بعد .

في الواقع يسهل نقد فوكو للعلوم الانسانية المهمة بعض الشيء ، بإعطاء هذه العلوم تحديداً محدداً لا يقبله أي من ممثليها . مثلاً على ذلك لا يشكل علم اللغة علماً إنسانياً يتعلق فقط بهذا التمييز والطريقة التي يستعملها الأفراد أو المجموعات لتمثيل الكلام... إلخ) . لقد نشأ علم النفس العلمي من القواعد الجديدة التي فرضها المجتمع الصناعي على الأفراد في غضون القرن التاسع عشر (كنا نحب أن نعرف ما هي هذه القواعد) وجذوره البيولوجية قد قطعت بإصرار . وهكذا لا يبقى من علم النفس هذا إلا تحليل للتصورات الفردية التي يستطيع أن يكتفي بها مطلق عالم نفسي ، وبالطبع فإن العقل الباطن الفرويدي الذي يقدره فوكو بقدر ، يملن نهاية الإنسان بمعنى تفكك عقله الواعي كأداة دراسة متميزة تسفياً . ينسب فوكو أن الحياة المعرفية بكاملها متعلقة ببنيات غير واعية أيضاً ، ولكن عملها يربط المعرفة بالحياة في كليتها . إن ذلك كله يفقد أهميته

إذا كان هذا النقد المتميز هو ثمن لاكتشاف ؛ من أول وهلة يبدو مفهوم الملومية جديداً ويبدو حاملاً نوعاً من البنيوية الملومية وهذا مرحب به . ولا تشكل الملوميات épistémè مجموعة قنات أولية بالمعنى الكانطى للكلمة لأنه ، بنكس الأخرى أو بعكس نظرة « ليفي شتراوس الإنسانية » التي تقرض نفسها كضرورة بشكل دائم ، تتلاحق الأولى في مجرى التاريخ وحتى بطريقة غير متوقعة .

كما ان الملوميات لا تشكل مجموعات من العلاقات الظاهرية التي تتأق من عادات فكرية بسيطة أو من طرق ضاغطة يمكن أن تعمم في وقت ما من تاريخ العلوم . ولكن هذه الملوميات تشكل « أوليات تاريخية » ، الشروط السابقة للمعرفة ، كالأشكال الألومية ، ولكن لا تبقى إلا مدة محدودة في التاريخ ، تاركة مكانها لغيرها عندما تفقد حظها . من الصعب عندما نقرأ تحليلات فوكو عن الملوميات التي يميزها تدريجياً ، أن لا نفكر « بالنماذج » paradigmes التي وصفها Th. S. Kuhn في مؤلفه الشهير عن الثورات العلمية^(١) . للوهلة الأولى تبدو محاولة فوكو أكثر عمقا ، لأنها ذات طموح بنيوي ، ولأنها إذا نجحت فسوف تؤدي إلى اكتشاف بنيات علمية خالصة تربط بينها المبادئ الأساسية للعلم في حقبة معينة ، بينما يقتصر كوهن على وصفها وعلى التحليل التاريخي للأزمات التي أحدثت التغييرات . ولكن من أجل تحقيق مشروع فوكو ، كان يتوجب وجود أسلوب عوضاً عن التساؤل بأية شروط مسبقة لنا الحق أن نعتبر أن علمية تعمل بالمعنى المحدد ، وحسب أية معايير يمكننا تحطى هذه المجموعة أو تلك من الملوميات المختلفة التي يمكن لأي كان أن يبينها حسب الطرق المتنوعة لتفسير تاريخ العلوم . وثق فوكو بجدسه واستبدل بالانجبال التفكيرى كل منهجية نظامية .

(١) The Structure of scientific revolutions . University of Chicago 1962 .

هناك خطر ان كانا محتومين :-

أ - الاعتبارية في الميزات التي أطلقت على العلومية . أنت بعض الميزات في مكان ميزات أخرى ممكنة وألقيت بعضها بالرغم من أهميتها .

ب - التقابر في بعض الخواص المثيرة متضامنة ، ولكن المتمية لمستويات مختلفة من الفكر مع أنها تاريخياً معا صرة .

فيا يتعلق بأولى هذه الصفات ، فإن ثلاثي السطوح ، الذي تكلمنا عنه والذي يمثل العلومية المعاصرة إعتباطي من جميع وجهات النظر . قبل كل شيء يعطي فوكو نفسه الحق كما رأينا بأن يتطرق من العلوم الإنسانية على طريقته ، طارحاً علم اللغة والاقتصاد عندما تتعلق ليس بالإنسان ، ولكن بالفرد او بالمجموعات الضيقة ، بينما يعم علم النفس وعلم الاجتماع داخل ثلاثي السطوح دون أن ييلنا مركزاً ثابتاً . نرى اذاً ان هذه العلومية تخص فوكو نفسه ولا تخص التيارات العلمية التي يعود فيصنيفها على طريقته الخاصة . من ناحية أخرى ، فإن ثلاثيه هو ثلاثي مكوفي ، بينما نجد أن الميزة الاسامية للعلوم المعاصرة هي مجموعة التفاعلات التي تسمى لإعطاء النظام شكلاً دائرياً مع تداخلات متعددة: دينامية حرارية ، وتقنية الاعلام . علم النفس x الاولوجيا x علم النفس اللغوي x القواعد المولدة ، المنطق x التكون النفسي ... الخ . وأخيراً يدرج التفكير الفلسفي كبُعدٍ مستقل ، بينما تسمى العلومية يوماً بعد يوم لأن تكون صمم كل واحد من هذه العلوم ، ويتملق مركزها نفسه أكثر فأكثر بدائرة هذه العلوم تقسها وبالعلاقات الإنضباطية المشتركة التي تتغير بدون انقطاع ، (ولكن على ماذا ينطوي التأكيد الذي يعود غالباً عن الميزة) « التجريبية السامية » لهذا « الأزواج القريب » الذي يمتلئ الإنسان .

أما فيا يتعلق بالخطأ الثاني لعلوميات فوكو ، أي التقابر الباطني ، يبدو ذلك

واضحاً جداً في اللائحة من الصفحة ٨٦، حيث 'ترجع علوميات القرنين السابع والثامن عشر الى التسق الخطي والى اشجار الصنافة *arbres taxonomiques* . وبالفعل يتعلق علم قوانين التصنيف ببنية بسيطة تنتمي إلى التجميع المنطقي (راجع مقطع ١٢) . ولكن بينما ظل الفكر البيولوجي على هذا المستوى ، توصل الفكر الرياضي، منذ القرن ١٧، الى التحليل التفاضلي *analyse infinitésimale* والى غاذج تفاعل (ليست خطية في شيء) كبداً لنيوتن الثالث (التساوي بين الفعل ورد الفعل) : أن ندعم العامة بحجة القول بأن المقصود هو نفس المعلومات لأن هناك تزامناً . هذا يحطنا ضحية للتاريخ بالمعنى الضيق ، بينما يدعي فوكو التخلص من ذلك ، بواسطة علمه الثقافي في « الأثرية » . نكون عندئذ قد نحلينا عن المستويات ، في حين أننا نوجد هنا بكل تأكيد بين مستويين مختلفين .

هذه المسألة الكلية للمستويات ، تقيب كلياً من أبحاث فوكو لأنها تتناقى مع علوميته للشخصية « والأثرية » . ويصبح سر هذا التناقى باهظاً للغاية ، وتتابع العلوميات غير مفهوم أبداً ، ويبدو أن مبدعها يظهر بعض الارتياح . فبالفعل لا تستطيع العلوميات المتتالية أن تستنتج الأولى من الثانية لا شكلياً ولا ديكالكتيكياً حتى ولا تنتج الواحدة بملاقاتها مع الأخرى بأي ارتباط كلف وراثياً أم تاريخياً . وبعبارة أخرى فإن الكلمة الأخيرة « لعلم آثار » العقل هي ان العقل ينحول من دون سبب ، وتظهر بنياته وتحتفي بتغيرات قسائية او بروتات آنية حسب الطريقة التي كانت يستدل بها اليواوجيون قبل البنيوية الإحيائية الالية المعاصرة . لا نبالغ إذا إذا نعتنا بنيوية فوكو بالبنيوية الحالية من البنيات . هذه البنيوية تأخذ من البنيوية السكونية جميع مظاهرها السلبية : علم تقسيم التاريخ والتكوين ، ففي الموضوع نفسه لأن الانسان سائر إلى الزوال . أما فيما يتعلق بالمظاهر الإيجابية فلا تشكل بنياته إلا تراسيم تصويرية وليس مجموعات من التحولات تحافظ على نفسها بضبطها الذاتي . النقطة الثابتة

الوحيدة في هذه اللاعقلانية الأخيرة عند فوكو هي الرجوع إلى اللغة المصممة على أنها تسيطر على الإنسان لأنها خارجة عن الأفراد: ولكن حتى « كائن اللغة » être du langage يبقى طوعياً يشكل بالنسبة إليه ، نوعاً من القموض الذي يحلو له فقط ان يشير إلى « إصراره المضمّن » .

ولكن عمل فوكو لا يخلو من قيمة يتعذر استبدالها لحدة ذكائه الهدام :
يبين عمل فوكو بالتأكيد استحالة الوصول إلى بنوية متماسكة إذا عزلنا هذه البنيوية عن البنائية^(١) .

(١) في مقابلة في دار الاذاعة الفرنسية نقلتها مجلة « la Quinzaine littéraire » عدد ١٩٦٨/٤٦ يعطي فوكو لاجتهات تاريخاً جديداً يعمده تقريباً عن أحاسيس الفارسي غير المتحار. ويريد من المقيد الإشارة الى أن هذا التفسير الجديد لا يستطيع إلا ان يبهج الراقبين يشوق، تنمة اعماله . اذا استوعبنا جيداً ، فإن الانسان السائر الى الزوال لم يعد الانسان الذي تصبو اليه الدراسات الموضوعية ولكنه انسان ينتمي لإحدى « الإنسانيات الفلسفية » التي لم تعد واقعة. أخف الى ذلك ان البحث العلمي أصبح داخل في مختلف العلوم بدل أن يتكفى، على « بيولوجيا من أجل الفلسفة » ... الخ وهكذا اشير، في هذا النوع من الجماعة في العمل النظري ، تكتمل فلسفة لم تجد بعد مفكرها الوحيد وبمبها الإفرادي ، في هذه الحال تتلطف مجموعة الاهتمامات التي قدمها فوكو ؛ مثالا على ذلك « اقتنا لا تقتل التاريخ بل تقتل التاريخ الخاص بالفلسفة ، هذا التاريخ نعم أريد أن أقتله » . نأمل اذاً من فوكو ، بعد أن عاد فاكشف انساناً مختلفاً عن انسان الفلسفة (او عبقثي علم النفس الفلسفي) ان يمد اليه بنياته وأن يجد حتى في البنيوية الموسوعية هارائل بحثه الافرادي، بدل أن يرى في البنيويين مجموعة متنوعة من المؤلفين صنف فيها وفقاً عن إرادته ، « فئة توجد من أجل الآخرين ، من أجل الذين لا يكونون » .

خاتمة

بتلخيصنا للقضايا التي حاول هذا المؤلف الصغير أن يبرزها يجب أن نلاحظ أولاً أن عدداً كبيراً من تطبيقات هذه الطريقة هو حديث العهد ، والبنوية نفسها تلك تراثاً طويلاً في تاريخ الفكر العلمي ، ولو أن تكونها حديث نسبياً بالنسبة إلى تاريخ الربط بين الاستنتاج والاختبار . إذا قدر لنا أن نتظر هذه المدة لكي نكتشف إمكانية الربط هذه ، فذلك عائد إلى أن الميل الطبيعي للفكر هو أن يتبع طريقه من السهل إلى المركب وأن يحل بالنسبة الارتباطات وأنظمة المجموع قبل أن تعرض صعوبات التحليل نفسها للتحرف عليها . ومن ثم لأن البليات لا تظهر كبنيات ولأنها تضع نفسها على مستويات . لأنه من الضروري أن نجد أشكالاً الأشكال أو أن نجد الأنظمة على القوة من ، وذلك يتطلب جهوداً خاصاً من التجريد المنعكس . ولكن إذا كان تاريخ البنية الطويلة طويلاً بعض الشيء ، فالدرس الذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو أن البنية لا يمكن أن تشكل موضوعاً لمقيدة أو لفلسفة وإلا لا يمكن تجاوزها بسرعة ، بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات ، والشرف الفكري ، ومن التطور في التمرينات المتتالية . لهذا كانت نوعية عقلية الانفتاح غير المحدد على المسائل الجديدة التي يجب على العلوم أن تحافظ عليها ، لا يمكننا إلا أن نكون قلقين في أن نرى الموضة تستولي على نموذج معين وتعطينا عنه نسخات فقيرة ومشوهة . يلزمنا إذاً بعض التراجع لكي نسمح للبنوية الحقيقية أي الموضوعية بأن تحكم على كل ما نكون قد ذكرناه وقطناه بإسمها . بعد هذا التذكير نجد أن النتيجة الأساسية التي نستخلصها من بحوثنا المتتالية هي أن دراسة البليات لا يمكن أن تكون جبرية ولا تلقائية ، من

جراء ذلك ، أي من الأبعاد الأخرى للبحث الذي يتعلق بعلوم الإنسان وعلوم الحياة بشكل عام . وبالعكس تسعى هذه الدراسة الى توحيد هذه الأبعاد ، وبالطريقة التي تم بها جميع التوحيدات في الفكر العلمي : على نمط التبادلية والتفاعلات . في كل مكان حيث نلاحظ بعض التشابه في بعض الوضعيات البنيوية الخاصة ، يَبْتَدَأُ لنا الفصول السابقة أن التناذج التي استعملناها لتبرير هذه التحددات او التصلبات كانت على وجه التحديد تشير في مرحلة التطور باتجاه معاكس للاتجاه الذي حددناه لها . بعدما استخلصنا من علم اللغة مختلف أنواع الاتجاهات الحسية ، ولكن الجانبية بعض الشيء ، جاءت التحولات غير المتوقعة عند شومسكي لتخفيف هذه الرؤى المحددة .

أما الثاني من استنتاجاتنا العامة فهو البحث عن البنيات . بعقليته نفسها ، لا يمكن أن يوصل ذلك إلا إلى ترتيبات مشتركة الانضباط . والسبب البسيط في ذلك أننا إذا تكلمنا عن البنيات في ميدان مصطنع المحصر ، كبندان أي علم خاص ، نجد أننا نتقار بسرعة حتى نصبح لا نعرف أين يحدد « الكائن » من البنية . لأن البنية حسب تحديدنا لا تتطابق أبداً مع مجموعة العلاقات الظاهرية المحددة بمفردها في العلم الذي عيَّناه . مثلاً على ذلك يحدد ليفي شتراوس بنياته في نظام يتألف من بنيات التصور التصورية schèmes conceptuels وتقع على نصف الطريق بين البنيات التحسية ، والممارسات أو الإيديولوجيات الموضوعية ، وذلك لأن علم السلالة هو علم نفس قبل كل شيء !

وليفي شتراوس حق في هذا ، لأن الدراسة النفسية الوراثية للذكاء تبين أيضاً أن وعي الذات الفردية لا يحتوي قطعاً الإرواليات التي منها يستنتج نشاطه ، وينطوي التصرف بالعكس وجود « بنيات » تعرض ذكائها بمفردها : زد على ذلك أن هذه البنيات هي نفسها التي تنتمي إلى الفريق او إلى الشبكة أو إلى التكتل ... الخ . ولكن إذا سألنا أين نضع هذه البنيات ، عندها نثير مواضع كلمات شتراوس ونُجِيب : نضعها في منتصف الطريق بين الجهاز العصبي

والتصرف الواعي نفسه ، « لأن علم النفس هو قبل كل شيء علماً بيولوجياً » ، وقد يتسنى لنا أن نواصل على هذه الطريقة ، لكن بما أن العلوم تشكل دائرة وليست تسلسلاً خطياً ، فإننا نهيض من البيولوجيا إلى الفيزياء ، وهذا معناه أننا نعود بعد ذلك من البيولوجيا والفيزياء إلى الرياضيات ، نعود بالنهاية ، لنقل إلى الإنسان حتى لا نقع في عتمة التقرير بين جسم وروحه . إذاً علينا استنتاجاتنا نجد بالفعل أن واحداً من هذه الاستنتاجات يفرض نفسه بنفس الدرجة من التأكيد التي يفرضها البحث المقارن : هذا الاستنتاج هو أن البنيات لم تقتل الإنسان ولم تقتل نشاطات الذات . بالطبع يجب أن ننسق المفاهيم فالمفارقات ، التي تتجسم عما نسميه « ذات » ، قد تراكت من جرّاء بعض التقاليد الفلسفية .

أولاً ، يجب أن نفرق بين الذات الفردية التي لا هم دراستنا والذات العلمية أو النواة المعرفية المشتركة بين كل النوات الموجودة في نفس المستوى .

ثانياً ، يجب أن نقابل بين ما تستطيع أن تفعله الذات ضمن نشاطاتها الفكرية التي تعرف نتائجها وليس لإدراكها ، وبين الوعي الجزئي الذي غالباً ما يكون مشوّهاً .

ولكن إذا فصلنا الذات هكذا عن « الأنا » و « التجربة المعاشة » ، تبقى عملياتها أي ما تستخلصه بالتجريد المنعكس من التنسيقات العامة لأفعاله . والحالة أن هذه العمليات هي التي تشكل بالتحديد العناصر المكونة للبنيات التي يستعملها . إذا دعنا عندئذ الفكرة القائلة بأن الذات قد اختفت ليحل المألوف والعام محلها ، نكون قد نسينا أنه على مستوى المعارف (كالقلم الاخلاقية او الجمالية) يفترض نشاط الذات لا مركزية مستمرة محورها من افانيتها الفكرية للطوعية لفائدة ، وذلك ليس بالتحديد لصالح شمولية خالصة وخارجة عنها ، ولكن بسياق غير منقطع من تنسيقات ووضع ضمن تبادلات : والحالة أن هذا السياق هو الذي يولد البنيات في عملية بنائها أو إعادة بنائها المستمرتين . وبكلمة واحدة فإن الذات موجودة لأن « كلن » البنيات هو مجد ذاته بِنْيَتِهَا .

والذي يعطينا التبرير لهذا الاثبات هو الاستنتاج التالي المختصر من:
المقارنة بين ميادين مختلفة: لا يوجد بنية من غير بناء مجرد أو بناء وراثي ولكن
كما رأينا فإن هذين النوعين من البناءات لا يبعدان عن بعضهما بقدر ما تتصور
ذلك عادة. منذ بدأنا مع غودل تميز بين البنيات القوية تقريباً والضعيفة داخل
النظريات التطبيقية والرياضية، اعتبرنا أن البنيات القوية لا يمكن اعدادها إلا
بعد اعداد البنيات البسيطة (الضعف)، لكن لكونها ضرورية لإتمامها،
يصبح نظام البنيات المجردة متكاملاً مع بناء المجموع لا ينتهي أبداً ويتعلق
بمحدود التعقيد.

أي أنه بتعدينا، أن أي محتوى يشكل بعد ذاته شكلاً محتوياً أدنى وأن
شكلاً يمثل دائماً محتوياً للأشكال العليا. في هذه الحال يصبح البناء المجرد المنعكس
المُعتمد للكون، لأن التكون يتبع هو الآخر طريق التجريد المنعكس،
ولكنه يتدنى من مستويات أقل ارتفاعاً.

وبالتأكيد في الميادين حيث نجعل المعطيات الوراثية وإذا صح القول حيث
تضيق كما في علم الأخلاق، يبدو طبيعياً أن نظهر بظهور لائق أمام لعبة رديئة
وأن تدبر أمرنا لاعتبارنا التكون كشيء عديم الجدوى. ولكن في الميادين
حيث يفرض التكون نفسه على الملاحظة اليومية، كما في علم نفس الذكاء، نلاحظ
في الواقع أنه يوجد بين التكون والبنيات ترابط ضروري، ولا يشكل التكون
أبداً إلا طريق المروء من بنية إلى أخرى، ولكن صفة هذا المروء الأساسية هي
أنه متكون ويقود من الضعف إلى الأقوى. كما أن البنية لا تشكل إلا مجموعة
تحويلات، ولكن جذور هذه التحويلات هي جذور عملية وتتمثل بتكون سابق
للأدوات المناسبة.

ولكن مشكلة التكون هي أكثر من مجرد سؤال في علم النفس: إنها معنى
مفهوم البنية ذاته الذي تنهكه. والانتقاء العلمي الأساسي يستلزم انتقاءاً لسيق
انتقاءاً لبنائية.

وبالطبع يبدو جذاباً بالنسبة للرياضي أن يعتقد «بالمثل» ، وأن يفكر أنه قبل اكتشاف الأعداد السالبة وقبل اكتشاف استخلاص الجذور للأعداد التخيلية $\sqrt{-1}$ ، ان هذه الاكتشافات كانت موجودة منذ الأزل في الجنة . ولكن منذ قانون غودل ، توقف الله نفسه عن جوده وأخذ يبني من دون انقطاع أنظمة ترداد قوة مما يحمله حياً أكثر .

والحال أننا اذا مررنا من الرياضيات الى البنيات الواقعية او « الطبيعية » ، تزداد عندئذ المشكلة حدة : ففطرية العقل عند شومسكي او استمرارية الفكر الانساني عند ليفي شتراوس لا ترضيان الروح إلا بشرط إهمال البيولوجيا . اما فيما يتعلق بالبنيات العضوية فيمكننا أن نرى فيها بدورها ، إما نتائج البناء المتطور ، وإما تابع ترتيب كانت عناصره مسجلة في كل حين في الموامض النواتية الأصلية .

وبالخلاصة فإن المشكلة تماود طرح نفسها على جميع المستويات . أما في الميادين المحدودة حيث وضعنا انفسنا فيكفينا ، لكي نستنتج ، أن نلاحظ بأن الأبحاث حول البناء الوراثي موجودة ، وأنها كثفت ولم تضعف قط من جرم الرؤى البنيوية ، وبالتالي ، أن تأليفاً يفرض نفسه كما نرى ذلك في علم اللثة وسيكولوجية الذكاء .

تبقى النغمة اذا كان موضوع المعرفة لم يقص جانباً من قبل البنيوية ، واذا كانت بنياته لا تتفصل عن التكون ، فمن البديهي أن تصور الوظيفة يفقد شيئاً من قيمته ويبقى منظورياً في الانتظام الذاتي الذي تتجهجه البنيات .

ولكن تبرز هنا أيضاً حجج الواقع واسطة الأسباب الشكلية أو المعرفية . ويرجع نقى العمل بالفعل في ميدان البنيات الطبيعية الى افتراض وجود كيان اذا كان ذلك يتعلق بالموضوع نفسه أو بالمجتمع او بالحياة .

فهرس

الصفحة	مقدمة
٧	الفصل الأول . - المدخل وطرح المسائل
٧	١ - تحديدات
٩	٢ - الجلة
١١	٣ - التحويلات
١٣	٤ - الضبط الذاتي
١٧	الفصل الثاني . - البنيات الرياضية والمنطقية
١٧	٥ - مفهوم الفريق
٢١	٦ - البنيات الام
٢٥	٧ - البنيات المنطقية
٢٩	٨ - الحدود البديلة للتعميد الاستنباطي
٣٣	الفصل الثالث . - البنيات الفيزيائية والبيولوجية
٣٣	٩ - البنيات الفيزيائية ومبدأ السببية
٣٩	١٠ - البنيات العضوية
٤٥	الفصل الرابع . - البنيات النفسية
٤٥	١١ - بدايات البنيوية في علم النفس ونظرية الصيغة
٥١	١٢ - البنيات ونشأة الذكاء
٥٧	١٣ - البنيات والوظائف

٦٣	الفصل الخامس . - البنيوية اللغوية
٦٣	١٤ - بنية النظام اللغوي المترامن
	١٥ - البنية التحويلية والملاقات بين تطور
٦٧	١٦ - كائن الفرد والنسالة
	١٦ - التكون الاجتماعي ، الفطرية او موازنة
٧٢	البنيات اللغوية
٧٦	١٧ - البنيات اللغوية والبنيات المنطقية
٨١	الفصل السادس . - استعمال البنيات في الدراسات الاجتماعية
٨١	١٨ - البنيات الإجنالية او المنهجية
	١٩ - بنية كلود ليڤي شتراوس ؛ الأنثروبولوجيا
٩٧	الفصل السابع . - البنيوية والفلسفة
٩٧	٢٠ - البنيوية والديالكتيك
١٠٣	٢١ - بنية دون بنات
١١١	خاتمة

Jean PIAGET

LE STRUCTURALISME

Texte traduit en arabe

par

Aref MNEIMNE & Béchir AUBERY

**EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris**

زخنيب بلمأ

- ديكارت والعقلانية / جنيفاف روديس لويس (٦٣) ...
- روسو / اندريه كريسون (٢٦)
- طبيعة الميتافيزيقا / جماعة من الفلاسفة الانكليز (١٧٨)
- عظمة الفلسفة / كارل ياسبرس (٨٨)
- العقل والنفس والروح / عبد الجبار الواثلي (١٦٢) ...
- علم الجمال / دني هويسمان (٥١)
- الفكر العربي / محمد اركون (١٧٧)
- الفكر الفرنسي المعاصر / ادوار موروسير (٩)
- الفوضوية / هنري آرفون (١٩٦)
- فلاسفة انسانيون / كارل ياسبرس (٩٥)
- الفلسفات الكبرى / بيار دوكاسيه (٤١)
- فلسفة التربية / اوليفيه ريبول (٥٣)
- فلسفة العمل / هنري آرفون (٤٩)
- الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر / جان فال (٣٠)
- فلسفة القانون / هنري باتيفول (١٣٤)
- الفلسفة والتقنيات / جان ماري اوزياس (٩٣) .
- فولتير / اندريه كريسون (١٨٦)
- قيمة التاريخ / جوزف هورس (٧٦)
- الكلام / جورج غوسدورف (١٠٧)
- كيركيغارد / بيار مسنار (٥٨)
- اللحظة العدمية المتعالية / الدكتور محمد الزايد (٩٠)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA



0351321

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth-Paris